الرؤية الكونية

الحضارية القرآنية

مختصر كتاب

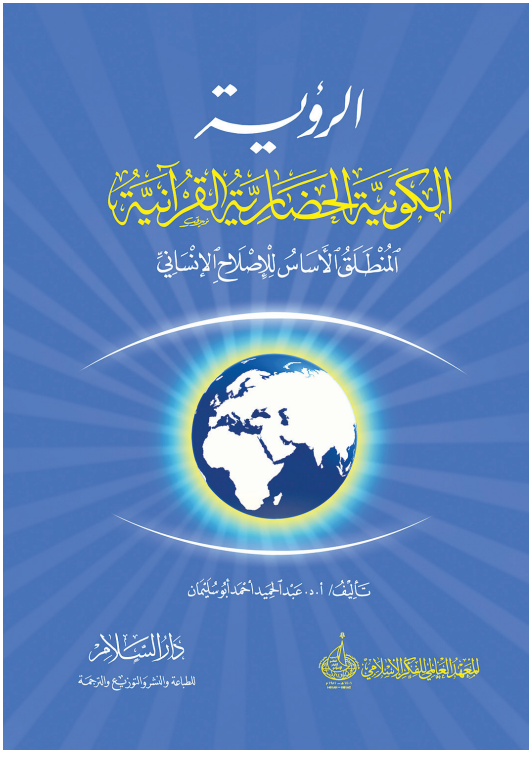

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

مختصر كتاب

الرؤية الكونية الحضارية القرآنية

المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني

مختصر كتاب

الرؤية الكونية الحضارية القرآنية

المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني

عبد الحميد أبو سليمان

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

© المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية

الطبعة الأولى 1435هـ/ 2014م

مختصر كتاب الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني

تأليف: عبد الحميد أبو سليمان

ردمك (ISBN): 978-1-56564-558-5

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
المركز الرئيسي - الولايات المتحدة الأمريكية
The International Institute of Islamic Thought
P. O. Box: 669, Herndon, VA 20172. USA
Tel: (1-703) 471 1133 / Fax: (1-703) 471 3922
www.iiit.org / iiit@iiit.org

مكتب لندن
London Office
P. O. Box 126, Richmond, Surrey TW9 2UD, UK
www.iiituk.com

مكتب التوزيع في العالم العربي
بيروت - لبنان
هاتف: 009611707361 - فاكس: 009611311183
www.eiiit.org / info@eiiit.org

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعبر بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء واجتهادات مؤلفيها

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الرؤية الكونية القرآنية الحضارية 9

الرؤية الكونية القرآنية هي البنية الأساسية للإصلاح 9

كيف تشوهت الرؤية الكلية الكونية الإسلامية؟ 11

تعارض العقل والنقل: وهمٌ أم حقيقة؟ 17

الرؤية الإسلامية بين الأصحاب والأعراب 21

ما هي الرؤية الكونية القرآنية الحضارية؟ 24

الأنا والآخر في الرؤية القرآنية الكونية 27

الرؤية القرآنية الكونية هي رؤية السلام العالمي 30

الثابت والمتغير: الزمان والمكان 36

مثالية واقعية 37

مبادئ الرؤية القرآنية الكونية 42

الرؤية القرآنية الكونية:
الأساس والمنطلق والدافع للإصلاح والإعمار 61

الرؤية الكونية الحضارية
والمفاهيم الإنسانية الأخلاقية 63

ما وراء الرؤية: حتى لا نحرث في البحر 64

كيف نبني "العلوم الاجتماعية الإسلامية"
ونحقق "الرؤية الإسلامية" 65
إسهامات المعهد العالمي للفكر الإسلامي 70
كلمة أخيرة 72

الرؤية الكونية القرآنية الحضارية

الرؤية الكونية القرآنية هي البنية الأساسية للإصلاح:

لكل منظومة حضارية رؤية كونية تفعّلها منهجية في التفكير، كما أن لكل منهجية مبادئ تهتدي بها. وتعتبر منهجية التفكير أداة تفعيل للرؤية الكونية الحضارية للأمة.

الرؤية الكونية الحضارية الإسلامية هي بمثابة الجذور التي تنبثق منها هذه المبادئ والقيم والمفاهيم، وهي التي تحدد طبيعتها وتمثل مرجعيتها والغايات والمقاصد الكبرى التي تجسدها.

إن قلة الاهتمام وعدم الوعي ببنية الرؤية الكونية الإسلامية وما تعبر عنه من المنطلقات والمبادئ والقيم التي تجسدها منهجية الفكر؛ يجعل من الصعب كشف ما لحق بمنهجية الفكر من سوء الفهم والتشوهات. وهذا من أهم الأسباب التي أدت إلى جمود المنهجية ومنتجاتها الفكرية، وإلى عدم فاعلية المبادئ والقيم، على الرغم من وفرة تراث الأمة من هذه الأدوات والقيم والمفاهيم الحضارية.

ولأن جذور منهجية فكر الأمة الإسلامية، والتربة التي تنبت مفاهيمها وقيمها، تنبثق من رؤية الأمة العقدية القرآنية الكونية (رؤية العالم)، فإن هذه الرؤية هي الجذور والتربة والمنبع التي تمثل القوة الدافعة العقدية التي تحدد طبيعة القوة الوجدانية المحركة للإنسان والمجتمع، تلك التي تحكم توجهاتهم في مسيرة الحياة ومدى قوة هذه المسيرة وفاعليتها الإعمارية الحضارية في الوجود والتاريخ.

ولذلك، كلما كانت هذه الرؤية واضحة جلية وسهلة الفهم والإدراك، وكلما كانت بعيدة عن التناقض والأوهام، مثَلت هذه الرؤية قوة ضميرية عقدية تربوية فاعلة محركة للفرد والمجتمع، أما إذا كانت الرؤية غائمة قهرية وخرافية فإن ثروة الأمة من المبادئ - والتي هي أدوات تفعيل الرؤية الكونية وضوابطها - لن يكون لها أثر في حياة الأفراد والمجتمع.

وهكذا فإن ما نرى ونلمس في حال الأمة المسلمة من عدم الوعي، وضعف الاهتمام العلمي المتعمق بالرؤية الكلية الكونية الإسلامية أو "رؤية العالم الإسلامي"، وضبابية هذه الرؤية وسلبيتها، هي السبب فيما تعانيه الأمة الإسلامية منذ عصورها السابقة وحتى اليوم من تدهور وتخلف.

ومن الأسباب التي ساهمت بشكل كبير في تدهور رؤية الأمة الإسلامية، تبني المثقفين المسلمين للحضارة الغربية دون النظر فيما تحملها في طياتها من رؤية للحياة والكون.

ولذلك؛ إذا لم يفق المثقفون المسلمون، بكل توجهاتهم، من

غفوتهم، أو من انبهارهم، وإذا لم يفتح المفكرون والتربويون والإصلاحيون، بجدية وروح علمية نقدية بنَّاءة، ملفات تراثهم وحضارتهم؛ فلن يستطيعوا أن يتصدوا بفاعلية لهذا القصور والتخلف والتدهور الذي أصاب الأمة، وهمّش وجودها.

ومن المهم أن يدرك هؤلاء أن الملف الأول الذي يجب أن يفتح من بين هذه الملفات هو ملف الرؤية الإسلامية، وحقيقة ما أصابها، لأنها هي القاعدة والمنطلق الذي يمثل الأساس العقدي والدافع الفكري والوجداني المحرك لدى الإنسان، وما لم يدركوا الأسباب التي أدت إلى غيمومة رؤية الأمة الكونية وتشوهاتها وسلبيتها، فلن يمكنهم أن يسهموا في استعادة الأمة لرؤيتها الكونية الحضارية، بإيجابياتها وفاعليتها وقوتها الدافعة المحركة في حياة الفرد والأمة، وفي تفعيل ثروات الأمة؛ بما يحقق ذات الإنسان المسلم ويحقق رسالة الإسلام ورؤيته الكونية الروحانية الإعمارية؛ لأن هذه الرؤية، ومن ثم منهجية فكرها، هي القاعدة الأساس من البناء.

كيف تشوهت الرؤية الكلية الكونية الإسلامية؟

نحن نعلم ما كان من أمر أمسنا المجيد، من تاريخ العهد النبوي، وصدر عهود الأمة الحضارية، كما نعلم أيضا ما كان من الحال المؤسف، في عهد الأمة اللاحق وفي عالم اليوم، ولذلك فإنه لا يمكننا تفسير إنجازات تلك العهود وروعة أدائها وإنجازاتها التي جددت حياة العالم وحضارته الإنسانية؛ ما لم يكن لذلك العهد وأولئك الرجال رؤية كلية كونية فعالة أمدتهم

بالايجابية والدافعية والقوة الفكرية والوجدانية التي مكنتهم من روعة الأداء الذي بهر عالمهم المعاصر وبقيت سيرته ومآثره حتى اليوم بحيث لم يقف الأثر المبهر لذلك التغيير عند حد تغيير العقيدة والثقافة للأمم والشعوب، بل امتدت آثاره إلى تغيير لغة جميع المناطق التي امتدت إليها الفتوحات الإسلامية.

ولذلك؛ فإن السؤال الذي نحن والإنسانية اليوم في أشد الحاجة إلى معرفة جوابه هو: ما حقيقة تلك الرؤية التي تحلى بها ذلك الجيل وعرفها ذلك العهد؟ وما مصدرها؟ وكيف تأتتْ؟ وذلك بقدر ما نحن في حاجة إلى معرفة: لماذا؟ وكيف؟ على مدى القرون والعهود، بهتت وخفتت، وفقدت تأثيرها وفاعليتها في أمة الإسلام، حتى أصبحت أمة ضعيفة سلبية مضطهدة تفتقد الإيجابية والفاعلية والدافعية؛ ومهمشة ليس لها دور حضاري تؤديه، وحتى يؤول أمرها إلى الحال المزري الذي نشهده في عالم اليوم؟!

ومن المهم قبل أن نجيب عن هذه الأسئلة، أن نعلم أن رؤية جيل الصدر الأول لا يمكن أن تكون هي ذات الرؤية الكونية التي نتمثلها اليوم والتي هي في مجملها وتأثيرها رؤية كونية نظرية سلبية تكاد لا تعبر إلا عن ادعاءات وأوهام لا تمثل إلا أعباء ومسؤوليات تلقى على عاتق الإنسان المسلم بشكل عشوائي إملائي، إلى حد "إلغاء الذات".

إن رؤية وخطابات بهذه المواصفات هي في كثير من جوانبها رؤية سلبية، ومدعاة إلى إحساس بالقهر والتهميش؛ وهذا يورث

في النفوس فقدان الدافعية والحماسة لطلب المعرفة واستلهام السنن الكونية، والإسهام الايجابي في مشروع الاستخلاف والإعمار الحضاري الخير، ولا يمكن لهذه النفسية إلا أن تخلف أمة سلبية اتكالية مستضعفة غير فاعلة أو مؤثرة، تفتقد الغاية والدافعية والحماسة، ويتسم أفرادها ومجتمعاتها بالأنانية والسلبية وضعف روح التعاون وانعدام الروح الجماعية، ولذلك فإنه لا عجب أن ينتج خطاب "إلغاء الذات" الإملائي الترهيبي، إعراضاً ورد فعل سلبياً، باللجوء إلى الدفاع غير الواعي عن الذات، وذلك بتلبس حالة "مركزية الذات" (النفس الحيوانية الطينية الأمارة بالسوء) التي تتسم في مجملها بالفردية الانطوائية السلبية والأنانية.

أما رؤية "العالم" أو "الرؤية الكونية القرآنية الحضارية الإسلامية" فما كان لها أن تحقق ما حققت في عهودها السالفة إلا لأنها كانت رؤية إيجابية تتسم بالدافعية و"تحقيق الذات" بأبعادها الفردية والجماعية؛ فيتفوق فيها دافع الحب والرغبة والاقتناع على مشاعر التخويف والترهيب؛ وبذلك يحقق الإنسان في مشروع الحياة ذاته ومعنى وجوده، وذلك من خلال الفعل والإعمار الحضاري الخير، والحماسة للأداء الحياتي في أبعاده الفردية والجماعية، المادية والروحية، أي أن الإنسانية في رؤية ذلك الجيل، القرآنية الإعمارية الحضارية، تستجيب لدوافعها الفطرية الروحية وحاجاتها المادية، لا بدوافع النزعات المادية الآنية الأنانية العدوانية الحيوانية "الأمارة بالسوء"، القائمة على القهر والتظالم، حيث "الحق للقوة"، ولكن تستجيب لفطرتها

وحاجتها المادية بالأسلوب والوسائل والنزعات الفطرية الضميرية الروحية السوية، القائمة على قيم العدل والإحسان والإخاء والسلام بأشمل المعاني، وحيث "القوة للحق" (النفس الروحية الضميرية "اللوامة")؛ بذلك يحقق الإنسان ذاته ورضا خالقه سويا فطريا، ويستجيب بشكل حضاري إعماري خيّرٍ وبناء؛ لتلبية حاجاته الروحية والمادية، وبناء مجتمعاته الحضارية الإعمارية. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30].

ولقد بدأ هبوب رياح الضبابية التي خيمت بشكل سلبي تدريجي على الرؤية الكونية الإسلامية من بعد العهد النبوي وصدر الخلافة الراشدة، بسبب اضمحلال جيل جماعة "الأصحاب" الذين رباهم القرآن الكريم على يد حامل الرسالة والمعلم والداعية الأمثل؛ وذلك بأثر السن والوفاة والاستشهاد، وبحكم الضرورة العسكرية في مواجهة ثورة الأعراب الجاهلية المضادة، ثم بعد إخمادها، مع تكبد جيل الأصحاب الكثير من الأرواح بسببها، ثم في مواجهة إمبراطوريات العصر الفاسدة المعتدية الغاشمة، الفارسية والرومانية؛ وهذا أدى إلى تجنيد القبائل في جيش الفتح، وهم الذين لم تكتمل تربيتهم بعد، الأمر الذي نتج عنه غلبة القبائل العربية من "الأعراب" على جيش الأمة الإسلامية وقوتها العسكرية وحياتها السياسية تبعا لهذا، وذلك لحداثة عهدهم بالإسلام وترسب مفاهيم القبلية العنصرية لديهم.

ومن المهم أن ندرك معنى غلبة "الأعراب" على الحياة السياسية للأمة الناشئة، وسيطرة السياسي على الديني وما ينجم عن ذلك من الاستبداد والفساد، وهو ما عبر عن كثير من تنبؤات الرسول ﷺ عما سيكون بعده من انحرافات وفتنٍ، وما سيكون لذلك من أثر خطير على مسيرة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأمة، وأهم من ذلك تأثيرها الجوهري على الرؤية الكونية الإسلامية.

فقبائل الأعراب، وبسبب طبيعة الجزيرة العربية القاحلة، كانت في الجاهلية وقبل الإسلام تعاني، بطبيعة الظروف البيئية، "قصوراً حضارياً" في عزلتها في جبال الجزيرة الشاهقة وصحاريها الواسعة.

وظهرت الآثار السلبية لغلبة قبائل "الأعراب" على الحياة السياسة الإسلامية بانهيار الخلافة الراشدة وقيام (الملك الأموي)، كما كانت آثار ما بقي عالقاً بهم من البدائية والمفاهيم العرقية الجاهلية؛ سبباً في بدء غبش الرؤية الكونية الحضارية القرآنية التي تجسدت روعتها في أداء جيل "الأصحاب" من "المهاجرين" و"الأنصار" لتحل تدريجيا محلها رؤية أعرابية "جل مصدرها خطاب خليط أملته خاصية أحوال قبائل الأعراب".

وهذا أدى في واقع الحياة ونظامها السياسي إلى تسرب الانكفاء والغبش على الرؤية الكونية الإسلامية وتشوهها في كثير من جوانبها، وساعد ذلك بدوره تدريجيا على توظيف الدين

لمصلحة الحكام وأتباعهم، وعلى تدهور المؤسسات العامة وعلى تمكين الاستبداد، وتفاقم الفساد في الحياة العامة، وفي بناء المجتمع بكل ألوانه، السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

وبهذا الإرث القبلي الجاهلي المبكر الموبوء، وبمواصلة المسيرة التاريخية للأمة الإسلامية، ودخول كثير من الشعوب في الإسلام وإختلاط ثقافاتها ورؤيتها بموروثات تلك الحضارات السالفة، ولاسيما الحضارة الإغريقية الصورية (المنطق) الأسطورية الرؤية (العقائد)، فازداد بذلك التخبط الفكري العقائدي في كثير من جوانبه، بمضي الوقت، وأدى إلى مزيد من غبش الرؤية الكونية الإسلامية، وتشوهها، وهذا بدوره أدى إلى مزيد من ضعف روح الأمة الإسلامية. وبدا ذلك واضحاً مع نهايات الحكم الأموي، في تمزق رقعة نظام الأمة السياسي، وتراجع منطلقاتها؛ التي جاءت وتنزلت في أصلها الصافي لتجديد الحضارة الإنسانية، ودفع عجلتها إلى الأمام برؤية الاستخلاف، ومبدأ التوحيد، وغائية الخلق، وسننية الفطرة، وأخلاقية الأداء، والتزام مبدأ العدل والإخاء والشورى والحرية والمسؤولية، وسعي التسخير والإعمار.

ومن المهم هنا أن ندرك أنه لا يغير من حقيقة ذلك التراجع الاستخلافي الروحي، التراكم الحضاري المادي الذي تحقق بمضي الوقت من موروثات الشعوب من أعمال المهن والحرف، ولذلك لم يكن من الممكن، بمضي الوقت، أن تخفي واجهة التراكم المادي ظاهرة التراجع الروحي النوعي الذي لحق بالأداء

الإسلامي الحضاري، ليتنامى غبش الرؤية الكونية الإسلامية، حتى أعتمت رؤية الأمة، وتلاشت الغائية والدافعية في روحها لتتوقف عجلة التقدم والإبداع والإعمار، وليتناهى الضعف، ولتفقد بذلك الأمة في فكرها ووجدانها مقومات الإيجابية الاستخلافية الحضارية.

لو أحسنا التأمل في مسيرة الفكر الإسلامي التاريخية لوجدنا أنه كان لكل تلك العوامل مجتمعة، وخاصة صورية منطق الفكر الإغريقي وأسطورية عقائده وفلسفته، أسوأ الأثر على تلك المسيرة ووجهتها العقائدية والفكرية والحضارية؛ واستنزفت في أوارها عقول علماء وفلاسفة الأمة الإسلامية.

تعارض العقل والنقل: وهمٌ أم حقيقة؟

إن من أخطر الانحرافات والتشوهات التي أملتها ظروف تاريخية أوقعت الفكر الإسلامي، دون وعي، في معركة رد الفعل على أرضية فكر الآخر الصورية السفسطائية التي أصابت الرؤية الإسلامية الكونية الحضارية في الماضي، والتي ما زالت تعاني منها الأمة حتى اليوم، أزمةَ تعارض "النقل والعقل" التي هي، انطلاقاً من الإسلام ورؤيته الكونية السننية، أزمة زائفة أوقعت الأمة الإسلامية في معركة فلسفية وهمية صورية لا وجود لها ولا معنى في الفطرة والواقع؛ لأن أي تعارض بين الوحي والعقل إنما هو تعارض وهمي، لأن وظيفة العقل هي في الجوهر بمنزلة آلة "الميزان" الذي يقوم بمهمة المقارنة والموازنة بين كفتين من المعطيات والقضايا، فيتحقق من مدى توازن الكفة بالأخرى.

وكفتا التوازن فيما نحن بصدده هنا ليستا هما ذات العقل والنقل، وإنما هما نصوص الوحي (النقل) من ناحية، وحقيقة الفطرة والسنن من ناحية أخرى، أما العقل هنا فإن مهمته تحري مدى توافق "النقل" و"الفطرة" التي فطر اللهُ الخلق عليها، والتثبت من أن الوحي (المسطور) يعبر عن (المنظور) من الفطرة والسنن، وأن "الوحي" الذي هو المقصود "بالنقل" يحقق غايات الفطرة ويوجه أداءها.

من الواضح هنا أن التعارض لا يمكن أن يكون بين الوحي (النقل) والعقل (الميزان)، ولكن التعارض يمكن تصوره أن يقع -نظريا- بين الوحي (النقل) وبين الفطرة والسنن، ومهمة العقل (الميزان) أن يحقق في قضية العلاقة بين "الوحي" و"الفطرة".

ولأن الوحي من عند الخالق، والفطرة والسنن حقائق من صنع الخالق، فإنه، كما حقق العقل وبرهن على مدى التاريخ، لا مجال للتعارض بين دلالة الوحي وهدايته وتوجيهه، وحقيقة الفطرة والسنن ومقاصدها؛ لأن الوحي هو تعبير عن الفطرة والسنن وترشيد لهما في سبل "تحقيق الذات" الإنسانية السوية، وتحقيق حاجاتها وغاياتها الحياتية كما خلقها الله وفطرها ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [الرُّوم: 30].

لقد كانت قضية "تعارض النقل والعقل"، التي وقع فيها العقل المسلم من دون قصد، بتأثير المنطق الصوري الإغريقي، تمثل منعطفاً خطيراً في مسيرة فكر الأمة ورؤيتها الكونية ومسيرتها

الحضارية، وما لم ندرك ما تنطوي عليه هذه القضية، وما ترتب ويترتب عليها في فكر الأمة وصفاء رؤيتها الكونية الإسلامية، فإن الأمة لن تستطيع أن تستعيد رؤيتها ودافعيتها وقدرتها وريادتها الإعمارية والعلمية الحضارية.

إن الفلسفة الأسطورية السفسطائية ومنطقها الصوري الإغريقي كانا في جوهرهما منهجاً أسطورياً نظرياً وترفاً عقلياً للسادة المترفين "الأحرار" لا ينتمي إلى علم الواقع والفطرة والسنن الكونية، بل كان فكرا مترفاً غارقاً في الذاتية والأسطورية والرؤى النظرية التي تستنفد طاقة الفكر في شؤون قد لا يكون لها وجود أصلاً ولا طائل منها، وهذا يفتح الباب واسعا أمام اختلاف الأهواء والأغراض الذاتية، وينجم عن ذلك اختلاف المواقف والرؤى، فيكون بذلك المنهج الفكري بابا مشرعاً للخلاف والشقاق لغير حاجة أو ضرورة سوى التأملات الذاتية وفقاً لرغبات النفوس وأهوائها، وهو ما رأينا استشراء آثاره في أمة الحق وفي أمة التوحيد والتوحد، من تعدد الفرق والطوائف والنحل على غير هدى ولا أساس موضوعي، إلا في الجوهر، انطلاقا من اختلاف الرؤى الذاتية واختلاف الأهواء والأغراض وتلبيسها ثياب الحق والقداسة الزائفة، ولو رد هؤلاء المتخالفون جل قضايا خلافاتهم إلى صحيح نصوص الوحي، وإلى حقائق الفطرة والسنن، لذابت جلُّ تلك الاختلافات.

وثالثة الأثافي أن ما انتهى إليه منهج فكر الأمة من تشوه وانحراف قد فتح بابا واسعاً للخلاف الديني الذي سلك مسالك

سفسطائية، وتهويمات فلسفية، وتخريفات وشعوذات كهنوتية، ومصالح ذاتية، وموروثات جاهلية مزقت وحدة الأمة، وعددت سبلها، وقطعتها إلى فرق وطوائف.

إن حقيقة العقل كالحاسوب "الكمبيوتر"؛ تعتمد مخرجاته على مدخلاته، فإن صحت المدخلات صحت المخرجات، وإن صح التصور وصحت الدعوى صح الفعل وعبر عن الواقع والحقيقة، وإن كانت المدخلات أهواء وتهويمات، كانت المخرجات مزيداً من الأهواء والتهويمات والخرافات.

فإذا جعلنا في بؤرة وعينا أن خطاب القرآن الكريم إنما هو بكل بساطة تعبير عن الفطرة الإنسانية السوية الغائية الإعمارية الأخلاقية، وعن سنن الفطرة والكون من حولها، والتي هي ليست إلا حقائق الخلق وجوهره، وقد جاء الوحي "النقل" لا ليتجاوزها أو ليتنكر لها، وإنما ليجعل جوهر هذه الفطرة السوية الإنسانية والسنن الكونية في بؤرة وعي الإنسان، وذلك ليرشد فطرته ويهدي مسيرته في سعيه لتحقيق ذاته وفطرته الإنسانية الروحية السوية، والاستجابة لحاجات فطرة خلقه ونوازعه التسخيرية الإعمارية الحضارية، وبالأسلوب والوسائل البنَّاءة الصحيحة "لتحقيق الذات الإنسانية السوية" وبذلك يهتدي سعي الإنسان ويتمكن من حسن استخدام سنن الكون من حوله، وتسخيرها بالأسلوب الكفؤ الخير البناء لتحقيق فطرة ذاته الروحية، والحصول على حاجات فطرته المادية؛ فيرتقي بوجوده، ويحقق ذاته وسعادته روحيا ومادياً، في هذه الحياة،

وباتجاه الملأ الأعلى والوجود الأسمى، وذلك بالسعي بالإصلاح والإتقان والتسخير والإعمار، وبالعطاء والبذل، لأن قيمة الإنسان الحقيقية ونفعه ورضاه عن ذاته إنما يتحقق بالسعي والعطاء، ﴿وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التَّغَابُن: 16].

وهكذا، فإن الرؤية الإسلامية الكونية الحضارية، حين تجُلى صورتها القرآنية، ونستصحب معها ما تحقق بها على عهد النبوة، تقوم الحجة الدامغة على إمكان تطبيق هذه الرؤية في واقع الحياة الإنسانية، ويتضح أنه لا مجال في هذه الرؤية للتعارض مع الفطرة والسنن، وما على الباحث إلا أن يلتزم المقابلة والموازنة العقلية العلمية الموضوعية بين الوحي والفطرة، وتحرير الفهم والإدراك في فهم الوحي في موضوع الخلاف بهدف الوصول إلى الحقيقة.

الرؤية الإسلامية بين الأصحاب والأعراب

إن غلبة رؤية "الأعراب" وما حملته معها من تقاليدها ومفاهيمها العرقية القبلية، ثم ما تلا ذلك من رؤية الشعوب التي دخلت الإسلام، وما حملته معها من تقاليد ومفاهيم من سالف تاريخها وثقافاتها وحضاراتها التسلطية الاستبدادية، وبسبب عدم التفرقة الدقيقة بين الخطاب القرآني اللازماني واللامكاني وبين الخطاب النبوي التطبيقي الموجه إلى الأعراب الوثنيين وظروفهم الزمانية المكانية والذي يركز على أساسيات الأركان، وبناء الجماعة والمجتمع (الصلاة والزكاة)، لإخراجهم من حالتهم

البدائية الاجتماعية الحضارية، إلى أساسيات منطلقات آفاق المجتمع الإنساني القرآني الحضاري العالمي، فكان لكل تلك العوامل أثرها في تشويه الرؤية الإسلامية القرآنية التي حملها "الأصحاب".

ولذلك فإن من المهم هنا التفرقة بين "رؤية الأصحاب" الكونية القرآنية التي بهرت العالم من حولهم، وبين "رؤية الأعراب" التي عبرت خطاباتها عن الحد الأدنى من توجيه الخطاب النبوي لتلك القبائل البدائية.

وشتان بين رؤية "الأصحاب" القرآنية الإيمانية الحضارية، ورؤية قبائل "الأعراب" البدائية وخطابهم "على قدر عقولهم"، كان الأصحاب حول الرسول صلى الله عليه وسلم تلامذة على القرآن الكريم ورؤيته الكونية الكلية الحضارية، من بدء خلق الإنسان، حين استخلفه الله تعالى في الأرض ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: 30]، إلى أن يبلغ الوجود الإنساني غايات وجوده في التسخير والإعمار، وأن يبلغ الغاية في الإبداع والزينة والتسخير والإمتاع والإعمار حين يرث الله الأرض ومن عليها.

ولو تمعنا في تاريخ سيرة علماء الأمة؛ لرأينا أثر تسلط السياسي القبلي والشعوبي على مقاليد الأمة، بعد هزيمة ورثة مدرسة المدينة المنورة، وعزلهم عن شؤون الأمة العامة وصرفهم إلى شؤون الأفراد (الذِّكر والأحوال الشخصية).

كل ذلك أسهم في مزيد من ضعف العلاقة الفكرية بالقرآن الكريم والرؤية القرآنية الكونية الحضارية، وتنزيلها على الواقع

المتغير والمتطور (عامل الزمان والمكان)؛ ليورث هذا القصور الأمة غبشاً في الرؤية؛ انتهى بجمهور علماء الأمة إلى التركيز على شؤون "الذِّكر"، والمعاملات الفردية والتجارية، فلا غرابة بعد هذا أن تتشوه الرؤية الكونية الإسلامية لتترك المسلم من دون مرشد في معنى حياته وغاية هذه الحياة، ولتعم ظاهرة عدم التوازن في أطروحات هذه الرؤية وتشوهها.

هذه الحال الفكرية المزرية التي انتهت إليها الأمة، وانتهت إليها رؤيتها الكونية الحضارية في عصور تخلفها النوعي الروحي، كان طبيعيا أن ينجم عنها، كرد فعل لخطابات "إلغاء الذات" حالة "مركزية الذات" بدلاً من "تحقيق الذات" (الفطرة السوية) إنسانا وأمة؛ فبدلاً من العمل والإصلاح والعطاء، كانت الحيرة والخوف والخنوع والانتهازية وتدهور الأخلاقيات وانهيار المؤسسات العامة، لتنتهي الحال لما نرى من ضياع الأمة وتهميشها وتمزقها إلى قبليات وعنصريات ومذاهب وفرق وانهيار العمران الإسلامي.

ومن المهم هنا أن نشير إلى أن طبيعة الخطاب النبوي لأصحابه كان خطاب حب وإعزاز وتكريم، وليس خطاب تحقير أو ترهيب أو إذلال، وتلك هي الرؤية القرآنية في خصوصية مكانته الكونية الحضارية ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنَافِقون: 8].

ما هي الرؤية الكونية القرآنية الحضارية؟

نستطيع القول إن الرؤية الإسلامية الكونية هي رؤية توحيدية غائية أخلاقية إعمارية خيرية حضارية تعبر عن الفطرة الإنسانية السوية، وهي بذلك، وبالضرورة، رؤية علمية سننية تسخيرية تهدف إلى جعل عناصر الفطرة الإنسانية السوية في بؤرة الوعي الإنساني؛ لتهدي مسيرة الحياة الإنسانية، وترشدها؛ كي يحقق الإنسان ذاته السوية في أبعادها الفردية والجماعية ويستجيب في وسطية واعتدال لحاجاتها ومتعها، على مدى أفق الوجود الإنساني بكل أبعاده الروحية والإبداعية العمرانية.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: 97].

ولما كانت هذه الرؤية القرآنية هي رؤية كونية خيرية سننية إعمارية؛ تعبرعن الفطرة الروحية السوية وترشِّدها، فهي بالضرورة رؤية تزود الإنسان بالدافعية والطاقة الوجدانية اللازمة لبناء الحياة الخيرة والحضارة وإعمار الأرض؛ لأن الاستخلاف والحضارة في جوهرهما هما الوعي والحضور الإعماري الخير في الزمان والمكان، والذي هو غاية الرؤية القرآنية الكونية الحضارية. وهكذا فإن الرؤية القرآنية الكونية الحضارية هي رؤية بناءة إيجابية "تحقق الذات الإنسانية السوية".

ومن هنا فإن الرؤية الإسلامية الكونية الحضارية، على عكس ما تصُورها بعض الخطابات المشوهة التي تجعل منها وكأنها رؤية تهدف إلى "إلغاء الذات"، وأنها قائمة على الواجبات

والتضحيات الإملائية الفوقية الثقيلة التي يضحي فيها الإنسان بذاته وحياته.

وهكذا فإن الرؤية القرآنية الكونية، لمن عرف القرآن وألفه، إنما هي رؤية فطرية إيمانية توحيدية خيرية إعمارية إيجابية، يحقق الإنسان بها ذاته، وينال بها حب الله ومرضاته؛ لأن حب الله ومرضاته في الرؤية القرآنية الكونية الفطرية هما في "تحقيق الذات" كما فطرها الله، وفي تحقيق الحياة الإنسانية الطيبة الكريمة الخيرة بكل أبعادها الروحية والمادية كما أرادها الله سبحانه تعالى. ولأن الله سبحانه وتعالى في الرؤية القرآنية هو الخالق، وهو الحق، وهو الخير، وهو العدل، وهو السلام، وهو الكمال والنقاء، ولأن الشر والشيطان في ذات الرؤية هو الفساد، وهو الظلم، وهو القسوة، وهو العدوان، كان المسلم في جوهره، إذا صحت رؤيته الكونية القرآنية الفطرية، إنسانا خيّراً، ولذلك فإنه لابد أن يكون محباً للخير كارهاً للشر وللشيطان.

وهكذا فإن الرؤية القرآنية الكونية التي يجب أن نغرسها في صغارنا وقرارة وجدانهم هي رؤية حبٍّ وكرامة وسلام، لُحمتها عقيدة التوحيد، وسداها علمية المعرفة وتزكية الوجدان، ينعم فيها الإنسان بحبه الله، وبحب الله له، وهو بذلك يعبد الله بإرادته الحرة.

ومن هذا المنطلق كان معنى الذكر والصلاة التي هي شعائر الذكر؛ لأنها تمثل التواصل مع الله سبحانه وتعالى، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 45].

ولمركزية مشاعر المسلم تجاه الله، خاصة في خضم التأثيرات الفكرية والثقافية السلبية المنبثة في الحياة والحضارة المادية المعاصرة، فإن من المهم توفير الدراسات النفسية والاجتماعية التي يمكن بها تمثل الرؤية القرآنية الكونية ومركزية حب الله الكريم الرحمن الرحيم فيها؛ وذلك من خلال أدبيات التربية الوالدية والمدرسية، والتي تعتمد في خطابها حب الله للمسلم وللطفل، أما في خطاب البالغ ففي التفكر والتدبر في نِعمِ الله ورعايته وتكريمه للإنسان.

ومن المهم أن نوضح هنا أن الذكر والتواصل مع الله هو أساس فطري وجداني يحقق به الإنسان ذاته، ولكن على المسلم أن يعلم أن هذا الحب لله والتواصل معه لن يكون حقيقيا، ولا معنى له، إذا لم يؤت ثمرته في قيام الإنسان بمهمة الاستخلاف في التسخير وإعمار الأرض؛ بالعلم والعمل الصالح والإتقان والإبداع.

وللأسف فإن غياب الوعي عن الرؤية القرآنية وأبعادها الاجتماعية، وبناء منظومتها الحضارية، سهل مهمة الغزو والاستلاب الحضاري الرديء بسبب الانبهار بالإنجازات العلمية الفيزيائية المادية للحضارة المعاصرة، ولنفاذ أسلحتها وإستراتيجياتها في الغزو الثقافي، باستخدام كافة الوسائل، مع غياب وسائل المناعة والمقاومة العقدية الفكرية والتربوية الوجدانية الرشيدة لأبناء الأمة؛ وذلك بسبب ضعف وسطحية الحركة الفكرية والتربوية.

إن فاعلية الرؤية الكونية القرآنية الحضارية تتأتى من توافر شروط الفاعلية والإيجابية، التي تتحقق بتوافر قوة الاقتناع، وبالتالي توافر قوة الإيمان، وسلامة القصد وغائيته وأخلاقيته، وفاعلية الأداء الناتج عن صلاح منهج الفكر وعلميته وجدية العمل الذي يقوم على التوافق مع الفطرة السوية، وعلى طلب أسباب التسخير والإبداع والإتقان بالعلمية السننية الشمولية ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التّوبَة: 105].

فالآيات السالفة توضح ثلاثة أركان للأداء الإنساني الناجح في الرؤية القرآنية الإعمارية الحضارية، وهي أولاً قوة اليقين و"الإيمان"، وثانيا إنتاجية "العمل"، وثالثاً فاعلية العمل بصلاحيته، وذلك بالتزام الموضوعية العلمية السننية.

إذا أرادت الأمة، وإذا أراد الإنسان المسلم تفجير الطاقة الوجدانية في كيانه، فعليه أن يتدبر الرؤية القرآنية الكونية، وأن يستعيدها ويستعيد قيمها ومفاهيمها في عقيدته وفي وجدانه، وفي نظره في عالمه ومعنى وجوده، ملتزما في أدائه وفكره وسعيه المنهجية العلمية السننية، ليحقق ذاته وفطرته الإنسانية الروحانية السوية، وليرشّد خياره الإعماري الحضاري.

الأنا والآخر في الرؤية القرآنية الكونية

هنا يتبدى وجه آخر لروعة الرؤية القرآنية الكونية؛ يكشف عن البعد التوحيدي التكاملي الكوني لهذه الرؤية؛ حيث تتبدى علاقة الإنسان بالآخر تكاملية، وذلك في دوائر متداخلة، في نسيج

حضاري توحيدي إعماري بديع، يقوم على الغائية والتكامل والتفاعل الإعماري البناء الذي يتحقق به في مجتمع الإنسان معنى الفرد، ومعنى الجماعة، ومعنى الإنسانية، في بيئة حضارية من قيم العدل والتسامح والإخاء والسلام.

فعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان تقوم على غض النظر عن جنسه أو لونه أو عرقه، مؤمنا أو غير مؤمن، فهم جميعا (إنسان) يجمعهم ويوحد بينهم انتماء وحدة الكل الإنساني، وخلقوا جميعا إخوة سواسية في الأسرة الإنسانية الكبرى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النِّسَاء: 1].

وعلاقة الفرد بالآخر هي علاقة جماعة، ووحدة إنسانية تنتمي إلى نفس واحدة، ويتفرعون منها "رجالاً ونساءً "ليتكاملوا "أزواجاً" وشعوباً وأمماً إنسانية، تجمعهم في الإنسانية أواصر "المودة والرحمة".

والأنا والآخر هم أناس ينتمون ويتفرعون "شعوبا وقبائل" في منظومات بشرية تحقق (في وحدتها) التنوع؛ حتى يتم التفاعل والتعارف والتكامل بين البشر؛ لأن التكامل شرط للتفاعل، لذلك كان الإنسان في كليته شعوباً وقبائل، وقدراتٍ وطاقاتٍ مختلفة؛ ليتفاعل ويتعارف ويتكامل. وبذلك فالاختلاف أو التنوع في الرؤية القرآنية ليس عنصرية ولا استعلاء، ولكنه وحدة وتكامل إنساني إعماري ضروري لوجود الفرد و الجماعة.

والأنا والآخر مهما اختلفوا فهم سواسية في الجوهر الإنساني "فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، إلا

بالتقوى"، وإن إختلاف قدراتهم وطاقاتهم ليس للتسلط والاستعلاء، ولكن ليتعاونوا ويتكاملوا في وحدة إنسانية تسخر الكون، وتوفر الحاجات، وتبتدع الحضارات والثقافات، فهو ضرورة ونعمة لكل فرد إنساني، ومن دونه لا وجود ولا بقاء لأي إنسان وحده من دون جماعة الآخر الإنساني.

والأنا والآخر بحكم الوحدة والانتماء والإخاء الإنساني، فإن العدل وحده هوالذي يحكم العلاقة حتى في حالة العداء والتنافر، ومن دون العدل لا تكون لرابطة الإنسانية وانتمائها، ولا لمسؤولية الاستخلاف معنى.

إذا لم يقصد الإنسان المسلم إلى العدل والاعتدال في حياته وعلاقاته فإن دعوى إسلامه وإيمانه دعوى واهية زائفة، يحتاج معها الإنسان المسلم إلى مراجعة جادة و تمحيص وتصحيح.

وفي الحديث القدسي عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا).

والأنا والآخر المسلم أخوةّ هوية وعقيدة ورؤية، هي جوهر الذات الإنسانية في حياتها ومآلها، وبذلك تكون أخوة الآخر المسلم السوي، أعز رفقة وأخوة إنسانية؛ ذلك لأن العقيدة هي أعمق رابطة روحية إنسانية. والآخر وأنا في الرؤية القرآنية الكونية في الحقيقة هما وحدة في تنوع، وتنوع في وحدة، لا تفاضل إلا في مدارج تحقيق الذات الإنسانية السوية، التي هي أصل

الفطرة، وغاية وجودها، ومناط مسؤوليتها واستخلافها في هذه الحياة الدنيا.

إن ما يميز الرؤية الكونية القرآنية الإعمارية أنها، على العكس من الرؤية المادية العدوانية العنصرية، تجعل من الاختلاف والتمايز الإنساني والكوني رؤية توحيدية تكاملية؛ تتكامل فيها مختلف الكيانات، لتكوين علاقات متداخلة متكاملة إيجابية توحيدية، هي لب الفطرة الإنسانية السوية، ومناط وجودها واستخلافها في الأرض، فلا مجال فيها للمغالاة الفردية، ولا للتطرف الجماعي، بل هي في كل أبعادها فطرة تكاملٍ وتوازنٍ واعتدالٍ وسلام.

الرؤية القرآنية الكونية هي رؤية السلام العالمي

لقد جاء الدين الخاتم ديناً هادياً ومرشداً ومبشراً ومرشداً لمرحلة الإنسانية العلمية العالمية، ورؤية عدلٍ وإخاءٍ ورحمةٍ وسلامٍ وإعمارٍ؛ لذلك لم يكن الخطاب القرآني خطاباً خاصاً بقبيلةٍ، ولا بقوم ولا فئة بعينها، ولكنه خطاب إلى الإنسان، وإلى العالمين، كما لم يكن أيضا خطاب خوارق وإعجازات تتسق وسابق المراحل الحضارية التي مرت بها الإنسانية، بل هو خطاب كتاب وعلم وقراءة وتفكر وتدبر، وخطاب عقل وحجة وإقناع، وخطاب هداية وترشيد، وخطاب إخاء وعدل وإعمار وسلام، فكانت الرؤية القرآنية والوحي هي الرؤية الكونية لإنسان المرحلة العلمية العالمية؛ تعبيراً عن الفطرة الإنسانية السوية، والسنن الكونية الأزلية؛ لترشيد الإنسانية وهدايتها، وتحقيق

غاياتها الإعمارية، ولبناء منظومة الأمن والسلام في كيانها؛ وهذا يتخطى الرؤى الحيوانية المادية العنصرية والعرقية الضيقة الانعزالية، والتي تنتمي إلى عصور ظلمات البدائية وما قبل التاريخ، فجاءت رسالة "الإسلام" أو رسالة "السلام" القرآنية لتعبر عن مرحلة العلمية العالمية ووحدة الإنسان، وتخطي نزعات العنصريات وعدوانية القبليات والقوميات والشعوذات والخرافيات، وبلورت عناصر الوحدة والتكامل الإيجابية البنَّاءة في كيان البناء الإنساني، وبقدر ما كان تعبير العنصريات والقبليات والقوميات هو إقصاء الآخر، حيث تركز منطلقاتها وفلسفتها على وجوه الاختلاف؛ ليكون الاختلاف أداة للإقصاء والاستعلاء، ودافعاً للصراع والعدوان والتظالم. وهكذا فإن رؤية الاختلاف والتمايز السلبي، المادية الحيوانية، هي وقود إذكاء روح التميز والعداء، وهي المناخ والبيئة التي تجعل وجوه الاختلاف والتنوع أسبابا للصراع والظلم والعدوان في العلاقات الإنسانية بين الدول والأعراق والأمم، والتي بسببها ذاقت الإنسانية المعاصرة جرائم الاستعمار والحروب العالمية التي تهدد الإنسانية حتى اليوم بسباقات اختراعات آلات الدمار الشامل بيد أنظمة عنصرية تسلطية لا تؤمن إلا بسياسات القوة، أما تمكين روح الوحدة والتكامل فإنها دعوة لروح التآلف والتعاون والمودة والرحمة والسلام.

ولذلك فإن الإسلام والرؤية القرآنية هي الفلسفة والرؤية الوحيدة التي أبرزت وأكدت وحدة الإنسان، ومعاني التنوع وأبعاد التكامل في إطار الوحدة الإنسانية بروح المودة والإحسان

والعدل، وتحريم الظلم والعدوان من الأطراف كافة، وفي كل الأحوال.

إن من المهم للأمة المسلمة وللإنسانية تجلية الرؤية القرآنية الكونية في بناء المجتمعات، وفي علاقات الشعوب والأمم؛ لأن ذلك هو طوق النجاة لترشيد المرحلة العلمية السننية العالمية، وتمكين حضارة العدل والسلام. ولكن يجب أن ندرك أن هذه التجلية لا يكفي أن تكون تجلية نظرية صورية، بل تجلية علمية معرفية، وتربوية وجدانية، وتنظيمية مؤسساتية، يقوم عليها نظام إنساني عالمي سلمي يؤمن بوحدة الإنسان وتكامله وتعاونه حتى يمكن القيام بمهمة الاستخلاف والتسخير، وإرساء قواعد العدل والسلام بشكلٍ عملي فعال في عالم الإنسان.

إن حضارة الإسلام الحق هي السبيل إلى صلاح الإنسانية وهدايتها واستنقاذها الروحي من وهدة وحشية المادية المعاصرة وتظالمها وصراعاتها، والتي تهدد بأسلحة دمارها الشامل كيان الإنسانية ووجودها.

إن الرؤية القرآنية الكونية الروحية الحضارية العالمية، التي جاءت بالعلمية والسننية، توجب تنقية هذه الرؤية من تأثيرات الجاهلية القبلية والعنصرية وتحريف التخريفات الإسرائيلية والأوهام الأسطورية، وتجليتها لا تكون إلا بالعودة إلى القرآن الكريم، ومن ثم بالفهم الصحيح لمعاني الخطابات القرآنية، والغاية المرجوة منها، وسلامة توجيهها في ضوء هذه الرؤية الكلية؛ لتتحقق في واقع الحياة الإنسانية، وتهدي مسيرتها،

وترشِّدها لتحيق غايات الحياة ومقاصدها.

لو أن المسلمين التزموا منهج الرؤية الإسلامية القرآنية الكونية، ومنظومة الثقافة والحضارة الإسلامية الكلية، لكان أثر الإسلام على الأمة والإنسانية مضاعفاً، ولانتشر الإسلام في آفاق أوسع مما نراه اليوم، ولكانت رؤيتهم الفكرية لا تعتريها الغبش والفتور، وتمكنوا من التخلص من المؤسسات الاستبدادية التي أدت إلى استشراء الفساد.

ولابد لنا هنا أن نوضح الفرق بين الإسلام والمسلم من ناحية، وكذلك بين الدعوة والدولة من ناحية أخرى. فالإسلام هو الرسالة الإلهية الخاتمة لترشيد الإنسان وإمداده بكليات الرؤية الكونية الحضارية لمعنى وغايات وجوده، وإمكاناته الفطرية الاستخلافية في الأرض.

والإنسان المستخلف هو المخاطب، وكل إنسان يأخذ من الإسلام وقيمه وتعاليمه بقدر طاقته وإرادته، والمسلمون أناس وبشر يؤمنون بالإسلام، ولكن كل واحد منهم متروك لعقله ووجدانه وإرادته في أمر سلوكه، فيكون بينهم ككل البشر تفاوت في قوة الإيمان وسلامة السلوك والالتزام، ويكون من الخطأ نسبة سلوك الفرد المسلم إلى دينه وعقيدته، فكل ما التزمه من الدين والعقيدة في سلوكه إنما هو ولا شك بتأثير دينه، وكل ما انحرف عنه وعن مقاصده وكلياته فهو يعود إلى الفرد المسلم.

كذلك يجب ألا نخلط بين الدعوة والدولة، فالدعوة هي خطاب للقلب والضمير بهدف الهداية والتعليم والترشيد، أما

الدولة فهي الكيان السياسي البشري في صوره المختلفة المتطورة للبناء الاجتماعي البشري، وهي بشكل أو آخر تتعلق بالجماعات الإنسانية، وبنظامها السياسي الاجتماعي، وبأرضها ومصالحها وترتيباتها الداخلية (بين أبناء المجتمع)، والخارجية في العلاقة مع الجماعات والدول الأخرى.

وعلاقات الدولة والجماعة السياسية الإنسانية منذ وجدت حتى اليوم هي إما حالة "سلام" تحكمه القوانين المنظمة للدول، وإما حالة عهد واتفاق تحكمها الاتفاقيات، أو حالة نزاع وعداء وحرب فتقرر القوة نتائج هذه النزاعات.

والرؤية الإسلامية الكونية الحضارية تقيم كل هذه العلاقات على أصل العدل والسلم. ففي المجال الداخلي فإن العدل والتكافل هما الأساس والشورى والنصح، وهما وسيلة القرار والإصلاح، وإذا انحرفت العلاقة ووقع الظلم فالاحتكام للشريعة والقانون، وإلا فإن الوسائل السلمية المدنية والعصيان المدني هما الوسيلة السليمة لتصحيح الأخطاء، أما العلاقة مع الآخر السياسي فهو التفاوض بين أولي الأمر لإحقاق الحقوق، ولا تكون الحروب وإسالة الدماء إلا إذا استحال الحصول على الحق من دونها.

ومن المؤسف أن الغرب تلقف المنهج العلمي السنني من دون تقبل الرؤية القرآنية التوحيدية، عند احتكاكه بالعالم الإسلامي، وهو بداية تعرفه على العلوم المادية والاجتماعية وإن كان ذلك من منظورٍ مادي، مما أدى لتفشي العنصرية والعنف

والأمراض الاجتماعية. ويجدر بنا أن نذكر أن عداء الغرب للإسلام إنما هو عداء قديم تسبب فيه كهنوت الكنيسة وافتراءاتهم على الإسلام.

إن من المؤسف أن يقضى على عهد الخلافة الراشدة، ويقضى معها في مسار تاريخ الأمة الإسلامية على إمكانية تطور مفاهيم العهد الراشد وقيِمِه ونماذج قياداته القرآنية التاريخية إلى مؤسسات راشدة تضمن استمرار تلك المفاهيم وتلك القيم والمبادئ، وتلك الرؤية الكونية الحضارية القرآنية التي غيرت مجرى التاريخ والحضارة الإنسانية. وإذا كان الغرب والحضارة الإنسانية المعاصرة قد تلقيا راية العلمية الفيزيائية والاجتماعية من منطلقات حضارة الإسلام، فإن من المهم والأمة تصحو على ذاتها، وتتعرف رؤيتها الكونية الحضارية، أن تتنبه إلى مفهوم المؤسسة، وأن توطن بها قيمها في العدل والحرية والإخاء والشورى والإعمار والسلام. فمن دون المؤسسات سوف تتغلب قوى الأنانية مجدداً، وتدفع الأمة إلى أوحال الاستبداد والفساد والعنف والعجز والجهل واحتكار السلطة والثروة.

إن جلاء الرؤية القرآنية الكونية، وإدراك أبعادها، وبناء مؤسساتها الاجتماعية، هو حجر الأساس ومنطلق الإصلاح، لا للأمة الإسلامية فحسب، بل لسلام الإنسانية وعمرانها وحضارتها ورشدها.

من المهم قبل أن نبدأ في استعراض مبادئ الرؤية والمنهجية الإسلامية علينا أن نستدعي قضية الزمان والمكان في فهم الوحي

ومصادره في الكتاب والسنة حتى لا يختلط الثابت بالمتغير.

الثابت والمتغير: الزمان والمكان

إذا كان الوحي هو المصدر الأساسي للدين وهدايته وترشيده للفطرة البشرية، فإن هذا المصدر في رسالة الإسلام العالمية الخاتمة يتمثل بالدرجة الأولى في القرآن الكريم الذي هو كلمة الله التي أوحاها إلى رسوله الكريم.

والقرآن الكريم كرسالة إلهية عالمية خاتمة يتسم بالثبات، وهذا يعني أنه رسالة مقاصد وقيم ومفاهيم تجعل لها صفة الثبات على تغيرات الزمان والمكان (الواقع)، وهذا ما يطلق عليه الثوابت، ولما كانت أحوال الحياة الإنسانية ومعارفها وتحدياتها متغيرة متطورة، فإن من الضروري أن تصبح تنزيلات قيم الإسلام ومفاهيمه متغيرة ومتطورة بحسب "الواقع" في الزمان والمكان، وهنا تأتي السنة النبوية كمصدر ثانٍ للرسالة الإسلامية في تقديم القدوة والنموذج، وإقامة الحجة في أن القرآن الكريم ليس كتاب تصورات وتهويمات خيالية مثالية بل هو رسالة هداية ورشد للإنسان.

ومن هنا فإن من المهم أن ندرك عامل الزمان والمكان في نصوص السنة النبوية التي مثلت حكمة الرسول ﷺ في تنزيل مفاهيم الرسالة التي تمثل الثوابت على المتغيرات الزمانية والمكانية، وأن نعي درسه وعبره في تنزيل القيم والمفاهيم القرآنية على الزمان والمكان.

وهذا يفسر الحفظ الإلهي للكتاب، ويفسر حرص الرسول ﷺ على عدم كتابة أوامره وأقواله وأفعاله، بحجة أن ما يأمر به ليس في القرآن، وذلك خشية الخلط بين القرآن الكريم الذي يمثل المصدر الثابت في الشريعة الإسلامية، وبين تصرفاته التطبيقية، لأنه ينبغي أن يراعى في تطبيقه متغيرات الزمان والمكان.

وهكذا فإن فهم طبيعة الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومعرفة الفطرة والطبائع الإنسانية الكونية، وإدراك الواقع الزماني والمكاني بإمكاناته وتحدياته، أمور منهجية ضرورية لإعادة بناء مناهج التربية والتعليم، واستفادة الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، وإدراك طبيعة منظومة عقيدتها وفكرها، ليتم استنهاض الأمة، وإعادة بناء حضارة العدل والعلم والعالمية والسلام.

مثالية واقعية

والسؤال المهم الذي يحسن الإجابة المباشرة عنه هو: هل الرؤية القرآنية الكونية الحضارية، وهدي الرسالة المحمدية، هي رؤية مثالية خيالية، على غرار كتابات الفلاسفة وتهويماتهم، وهل هي من باب الترف الفكري الذي لا موضع له من واقع حياة الإنسان الحقيقية؟ أم أنها رؤية وهدي حقيقي واقعي يمثل الجانب الإيجابي في الحياة البشرية ويرشدّه، ويغلب قوى جوانب الخير الروحية البناءة في النفس الإنسانية على نوازع الشر والظلم الحيوانية المادية الهدامة فيها؟

تبدو الإجابة الإيجابية عن هذا السؤال صعبة للوهلة الأولى،

خاصة في ضوء ما تعيشه الأمة الإسلامية من التمزق والتناحر والتظالم والأنانية والفقر والجهل، ومن تردٍّ في بنائه ونظمه وسلوكياته وعلاقاته الكونية الحضارية، والذي يكاد يكون النقيض لهدي الرسالة ورؤية القرآن الكونية الحضارية.

وللإجابة السليمة عن هذا التساؤل يستوجب أن نستحضر عدداً من الحقائق والمسلمات.

وأول هذه المسلمات: أنه ليس فيما تقدمه الرؤية القرآنية الكونية أمر لا يرغبه الإنسان، وأن أغلى وأثمن ما في التاريخ الإنساني هو ما ينجح في تحقيقه من هذه الرؤية في بنائه الحضاري على وجه الأرض.

والمسلمة الثانية: أن العهد النبوي كان المثال الواقعي الذي حقق هذه الرؤية القرآنية ومتطلباتها الواقعية في الزمان والمكان، وبالتالي لم تكن الرؤية القرآنية الكونية رؤية نظرية فلسفية خيالية لا يمكن تحقيقها في الواقع الإنساني، فكان دور الرسول ﷺ هو حكمة تنزيل قيم الرؤية القرآنية ومفاهيمها ومبادئها في الواقع الإنساني، حتى يرى البشر في المثال النبوي وحكمة تنزيله؛ واقعية هذه الرؤية وإمكانات تحقيقها في الواقع الإنساني لقوى الخير والإصلاح والبناء الحضاري الروحي الكامن في النفس البشرية.

والمسلمة الثالثة: تفاوت النفوس البشرية والمجتمعات الإنسانية في تحقيق قيم الخير والإصلاح والبناء الحضاري ومفاهيمه في واقع سلوكهم وبناء مجتمعاتهم.

ولذلك؛ فإن المجتمعات التي تضعف فيها قوى الخير والعدل ليس لها أن تيأس في إصلاح ذاتها وحضارتها الإنسانية الخيرة، وعليها معالجة الأسباب التي أدت لذلك، وألا تصغي لأي مقولة جاهلة أو مغرضة تزعم أن ما يدعو إليه الإسلام ورؤيته الحضارية الكونية القرآنية هو دعوة مثالية؛ لأنه يجب التفرقة بين المثالية الخيالية، والمثالية الواقعية، فدون المثالية، انحطاط وتدهور وفساد وحيوانية مادية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179].

ولكن لا قيمة للمثالية إذا كانت لا تتعامل مع النفس الإنسانية وتطلعاتها ونوازعها في الزمان والمكان؛ لترشّد مسيرتها.

المثالية الواقعية هي حبل النجاة للإنسانية من مزيد من التردي في مهاوي ظلمات المادية الحيوانية العدوانية وتظالمها.

والشق الثاني المهم من الإجابة عن سؤالنا عن الطبيعة المثالية في الرؤية الكونية الحضارية القرآنية هو: هل هذا يعني أن الإنسان المسلم حتى يحقق هذه المثالية القرآنية لابد أن يتمثل كل هذه القيم والمفاهيم والمبادئ في كافة جوانب حياته وسلوكه، وفي كل حركة وسكنة، وفي كل يوم من أيام حياته، أي لكي يكون الإنسان مسلماً يجب أن يكون معصوما منزها من الأخطاء والزلات؟

الخطاب الإسلامي، بلغة الترهيب التي انزلق إليها كما أشرنا سابقاً، رسخ هذا التصور، الأمر الذي جعل الرؤية القرآنية في واقع الأمة الإنساني والثقافي أقرب إلى المستحيلات. ولأن

الصراع النفسي بين قوى الخير والشر في النفس الإنسانية حقيقة كونية؛ فإن الزلل والخطأ أمر في أصل الطبيعة الإنسانية وبنائها، ولا مجال لتصور العصمة إلا للرسل فيما يتعلق برسالاتهم. (فكل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون). والرؤية القرآنية أثبتت هذا البناء وهذا الصراع، وأرشدت إلى مواجهته وسبل انتصار قوى الخير في النفس البشرية.

فالصراع النفسي بين قوى الخير والشر في النفس الإنسانية حقيقة كونية، وتطلُّع الإنسان إلى انتصار الخير والصلاح طبيعة إنسانية، وإمكانية الخطأ والزلل حقيقة إنسانية أيضاً، ولا ترى فيها الرؤية القرآنية مجالاً للإحباط أو اليأس، لأن علاجها هو دعم قوى الخير في النفس، وعدم اليأس من إصلاح ما يفسد، فالله الذي ألهم النفس "فجورها وتقواها" هو الرحمن الرحيم والرؤوف الكريم، يقبل التوبة والرجوع عن الخطأ والزلل وعدم الإصرار عليه. فالرؤية القرآنية قوة رشد وهداية إلى الخير، تدل عليه وتيسر سبله.

ومن هنا يجب التفرقة بين الإسلام ورؤيته الكونية الحضارية القرآنية التي هي هداية وترشيد واستنهاض لقوى الخير والإصلاح والإعمار في النفس الإنسانية، وبين السلوك والتمثل البشري لهذه الرؤية وقيمها ومفاهيمها ومبادئها، لما في الطبع الإنساني من صراع، ولما تكتنفه من قوى وتيارات تجعل من الزلل والانحراف أمراً ممكناً وعلاجها بمعرفة الوقائع والظروف التي تدفع بالأفراد والأمم والحضارات إلى مزالقها وشباكها، ومواجهتها بالإصلاح.

وللإصلاح والتغيير والحد من أثر الأخطاء والزلات؛ لا بد للأمم من نظرات فاحصة ناقدة لثقافاتها وخطاباتها وأساليب تربية أبنائها وتكوين كوادرها؛ بحيث تصح الرؤية، وتصح التربية، ويستقيم الفكر، ويسمو الوجدان، حتى يكون أصل الطبع الغالب هو التطلع إلى الخير والصواب في طلب الحاجة وتحقيق المصلحة للفرد والجماعة، ويكون الخطأ والزلل استثناء ينكره المجتمع، وتعافه النفس ولا تصر عليه، وترجع عنه.

فمهما كان حال الأمة اليوم فإنه إذا ما قام مفكرو الأمة ورجال الإصلاح والتربية والتعليم بدورهم في معرفة أدوائها، وكيفية علاجها في ثقافتها ومناهج فكرها، وفي أساليب التربية الوالدية فيها، وفي مناهج تكوين كوادرها ومناهج تعليمها، وبناء مؤسساتها، وإذا تم إرشاد كل فئة إلى مصادر الخلل وطرق الإصلاح بدءا بالأسرة والوالدين وانتهاء بالمدرسة والمعلم، فإن استعادة الأمة لعافيتها ودورها الحضاري لن يكتنفه هذا الضباب، وتصور الصعاب، وستكون الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، هي كلية رؤية الأمة ومنهج حياتها.

وعلينا أن نذكر في بنائنا لحياتنا وعبور مفازاتها أن الإسلام هو رؤية إنسانية سوية، وهي قارب النجاة وبوصلة الطريق إلى رحلة مأمونة العواقب، منجية من المهالك إلى شاطئ النجاة.

الإسلام ليس عنصرية حيوانية ظلامية عدوانية استعلائية، الإسلام ليس خيالية أسطورية استعبادية إذلالية رهبانية، الإسلام ليس مادية عدمية عبثية صراعية حيوانية. الإسلام واقعية حياتية روحية متوازنة سوية.

مبادئ الرؤية القرآنية الكونية

إذا أدركنا كليات الرؤية القرآنية واستوعبنا أبعادها الكونية والحضارية، أمكننا حينئذ فقط تحقيق الإدراك السليم لمبادئ هذه الرؤية ومفاهيمها وقيمها، لأنها هي الوسائل والمنطلقات الأساسية اللازمة لتجسيد تلك الرؤية؛ وهذه المبادئ والقيم والمفاهيم هي الأدوات التي تضبط منهج فكر الأمة المسلمة، والإنسان المسلم، وتحوله إلى واقع حي ملموس، يرشِّد مسيرة المجتمع الحضارية، ويمدها بالقوة والإرادة والطاقة التي تمكنها من الفاعلية والأداء والنمو والتطور، وتمكنها من تحقيق مقاصدها، وإبداع وسائلها؛ متطورة متفاعلة مع متغيرات الأحوال والظروف والإمكانات والتحديات، ومع سقوف العلوم والمعارف الممتدة المتوسعة.

وسنتناول هذه المبادئ بشيء من التفصيل:

1 - التوحيد

التوحيد هو المبدأ الأساسي في الرؤية الإسلامية الكونية؛ لأنه هو الإجابة الكونية الفطرية السوية للبعد الروحي للإنسان في فهم ذاته مبتدأً ومآلاً، وهو سقف المنطق الإنساني في فهم أبعاد الحياة والوجود، وما وراء الحياة والوجود، ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [فَاطِر: 3]. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبيَاء: 25].

ووحدة الخالق وقدرته وتفرده وكماله، وبديع الخليقة التكاملية، يفسر ويحتم فطرة الخليقة وحدةً وتنوعاً.

وإذا كانت فطرة الكون وتكامل نظامه يحتمان وحدة الخالق وقدرته؛ فإن إبداع الكون وإتقان صنعته وإحكام نظامه؛ تفسر وتحتم أيضا وحدة هذا الخلق السببية التكاملية.

2 - الاستخلاف

ومبدأ الاستخلاف ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: 30] ليس تكليفاً قرآنياً لا أساس له في فطرة الإنسان، ولكنه يعني قدرة الإنسان فردا وجماعة، بما وهبه الله تعالي من صفات تميزه عن باقي المخلوقات، على التصرف في عالمه، وتسخير الكون من حوله لتوفير حاجاته، وتجسيد رؤاه وخياراته ومبادئه وقيمه ومفاهيمه؛ لأنه لا قيمة للمادة إذا لم تجسد قيماً ومبادئ سوية، ولا قيمة للمبادئ والقيم والرؤى إذا لم تتجسد في مادة.

وهكذا فإن الاستخلاف، بما يحمله من متعة التصرف ومسؤولية الخيار، هو جوهر الحياة الإنسانية وغايتها في العمل الخيّر، وفي الإبداع والإعمار.

3 - العدل والاعتدال

إن العدل هو نقيض الظلم والجور في جميع وجوه التصرف الإنساني في الحياة، وهو لب المحتوى والتفاعل الإنساني

السوي، معنوياً، ومادياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وسياسياً، ومن دون العدل، وبالتالي الاعتدال، تصبح جميع أبعاد الوجود الإنساني وأداء الاستخلاف مفرغة من معناها وغايتها. فالعدل هو الذي يعطي محتوى التصرف الإنساني معناه السوي المعتدل، ويحقق غائيته وأخلاقيته، ويجسد فطرته السوية، ولذلك كان العدل أول ما يؤمر به الإنسان؛ لأنه لب معنى الحياة وقاعدة ترشيد الفطرة، ولأنه بالعدل ينزه الله ذاته العلية عن الظلم، ولا يظلم الإنسان إلا نفسه بالانحراف واستعباد إرادته لغير الله الحق العدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [التوبة: 70]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 108].

ولأن لب معنى الحياة وخيريتها يتعلقان بالعدل؛ لذلك يرشد الله الإنسان حتى يحقق ذاته السوية بتوخي العدل والاعتدال في كل شيء، حتى مع النفس وعلى النفس، ولا ينكره على أحدٍ ولو كان عدواً.

وإذا كان العدل هو اللب والجوهر فإن الاعتدال هو الدليل؛ ذلك لأن عدم الاعتدال يؤدي إلى الفساد في النفوس، وهو بذلك ظلم ومجافاة للعدل، ولذلك فلا عدل بلا اعتدال، وما ساد العدل إلا ساد معه الاعتدال، وما شاع الاعتدال إلا ساد معه العدل، وسادت الرحمة، وساد التكافل.

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: "اتقوا الظلم

فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم".

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه".

4 - الحرية

إن المكانة المميزة للإنسان على سواه من الكائنات، وقدراته الاستخلافية، هي التعبير الإلهي عن تكريمه، وهي التي تحمّله في ذات الوقت مسؤولية الاستخلاف والتصرف؛ وهو يستلزم بالتبعية حقه في حرية التصرف، وتمكينه من ذلك، في حدود طاقاته وقدراته، وبذلك تكون حرية الأداء هي حق الإنسان في التعبير الحر عن إرادته واقتناعاته في حدود قدراته وإمكاناته وظروفه، فرداً أو جماعة ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: 286] ، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطَّلَاق: 7].

ومن المهم هنا أن نوضح أن الحرية نوعان:

النوع الأول: هو حرية شخصية ذاتية ضميرية تتعلق باقتناعات الفرد في عقيدته ورؤيته الكونية، وهي حق ليس لأحد أن يملي رؤيته واقتناعه الخاص به على أي أحدٍ سواه، أو أن يتدخل في هذا الشأن بأكثر من الدعوة والنصح.

النوع الثاني: هو حرية التصرف ضمن المجال الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية الإنسانية، وتبادل المصالح. وهذه الحرية لها حدودها التوافقية بين أعضاء المجتمع، والتي يضع حدودها

شورى المجتمع؛ بحيث يحق لأي عضو في المجتمع أن يحقق غاياته السوية من دون معوقات، ولكن من دون أن تتحول الحرية إلى فوضى اجتماعية تضر بمصالح الآخرين أو المجتمع، مع الحرص على ألا يتم ذلك تعبيرا عن إملاءات ومصالح خاصة، أو على غير رأي شورى المجتمع، بما ينتهي بالمجتمع حتماً إلى الوقوع في حبائل الاستبداد والفساد.

وفي هذه المرحلة الخطيرة من مرحلة إعادة بناء الأمة وترشيد الحضارة الإنسانية علينا أن ندرك أن الإنسان الفرد لا وجود له كمجرد فردٍ، لأن الإنسان، بفطرته وأصل خلقه، اجتماعي، أي "جماعة"، ولا يمكنه أن يوجد، وأن يحقق ذاته، إلا في جماعة، ولذلك؛ فالجماعة، وبحكم أصل الوجود والفطرة، تكون مهد وجود الفرد وإطار حركته وحريته، ولذلك فالجماعة في خاتمة المطاف هي التي تقرر الحدود والضوابط الضرورية السليمة لعلاقة الفرد بالآخرين، ولكن بتوازن بين حق الفرد وحق ومصالح الجماعة وبقائها، ولا يتم ذلك إلا بأسلوب توافقي شوري يحقق المصالح، ويدرأ المفاسد، ولا يسمح بالاستبداد.

5 - المسؤولية

الإنسان بفطرته السوية التلقائية التوحيدية الروحية، وقدراته الاستخلافية الإدراكية العلمية، وما يدرك بفطرته السوية من غائية الكون، كل ذلك يقوده عقلاً وفطرةً إلى أنه في حدود قدراته وخياراته المتاحة يتمتع بحرية القرار، وتقع على عاتقه مسؤوليات هذه القرارات والخيارات، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [يَس: 54].

6 - الغائية

إن الإنسان بفطرته التوحيدية، ومكانته الاستخلافية، وما منحه الله من قدرات الإدراك والعلم والمعرفة التي ميزته وكرمته على سواه من الخلائق، وبما يشاهده الإنسان ويلمسه من بديع نظام الكون من حوله، يدرك من كل ذلك، بفطرته الروحية الضميرية السوية، ضرورة غائية هذا الوجود المذهل، الذي لا يمكن تصور أن يوجد من دون خالقٍ كاملِ الصفات، يمثل بعداً ومنطقاً آخر، فيما وراء تصور الإنسان وطاقات علمه وخياله ومنطقه الإنساني ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبيَاء: 16].

وهكذا فإن الإنسان، بتلقائية فطرته السوية التي يعبر عنها القرآن الكريم، يدرك ضرورة غائية الوجود.

إن الإنسان في الرؤية القرآنية حياة جادة خيرة ذات معنى، وثمرة حقيقية لكل ما يحققه في الحياة، يمتد في عالم الروح والأبدية، فهي بذلك حياة تتجاوز موت جيفة البدن، إلى حياة روحية أبدية، يجني فيها الإنسان ثمرة كل ما حققه في حياته، إذ لا معنى ولا عقل ولا فطرة أن يتساوى الحيوان الأعجم مع الإنسان بروحانيته وعقله وضميره، وحيث قيم الإصلاح والإحسان والإبداع والإعمار.

7 - الأخلاقية

إن الإدراك الفطري لدى الإنسان بالخالق وتوحيدية الخلق؛ يجعله يدرك أنه لابد أن يكون لهذا الكون خالق، وأنه لابد للكون والخلق من غاية، ولابد أن يكون قد خلق لغايات أخلاقية سامية خيرة، وهو ما تجيب عنه وتعبر عنه الرؤية القرآنية، وتضعه في بؤرة إدراك الإنسان (فردا وجماعة) في مسيرة حياته لكي تهديه وترشده لينظر ويقرر، بوعي وعلم ومسؤولية، أي السبيلين يسلك؟ الإصلاح والإعمار، أم الطغيان والإفساد؟

وهذا الحس الإنساني الفطري الروحي السوي هو أساس الحس الديني والخلقي في فطرة الإنسان وتساؤلاته وتطلعاته الروحانية التلقائية منذ أن تتفتح عيناه طفلاً على الوجود، وبذلك يحكم سلوكه نور الروح وقوى الضمير، وهو عكس ما تغري به حيوانية الجسد المادية في الاستجابة للحاجات بالغلبة والتظالم والعدوان.

8 - الشورى

أدركنا إذن أن الإنسان في الرؤية الكونية القرآنية الحضارية قد خلق خليفة في الأرض لأداء مهمة إعمار الأرض، ولذلك أعطي بالعلم القدرة على الإعمار والتسخير، ومنحِ الحرية والقدرة على الخيار، ومنح الفطرة الروحية السوية التي تستدعي في نفسه وضميره غائية القصد الخير والإصلاح والإعمار.

والسؤال الآن: لماذا كان الاستخلاف، قبل أن يكون مهمة

فردية، مهمة الإنسان نوعاً وجماعة، وأجيالاً إثر أجيال؟

والجواب أن مهمة الاستخلاف، وإن كانت مسؤولية كل فرد إنساني، فهي في ذات الوقت مهمة جماعية اجتماعية تتعلق بالجنس البشري والمجتمع، وتمتد عبر الأفراد إلى المجتمعات وإلى الأجيال، وهذا يعطي الحرية والمسؤولية الإنسانية أبعاداً هامة، فالمسؤولية غائية تهدف إلى الإصلاح والإعمار، لا إلى الفساد والإفساد.

وإذا كانت حرية الفرد هي حق للفرد لا ينازع، فإن هذا الحق ليس مسوّغاً للفوضى والعبث بحقوق الأفراد الآخرين، ولا بحقوق الجماعة وحقوق الأجيال القادمة ومصالحها، في حماية وجودها وغاياتها الإعمارية والإصلاحية.

وهنا يأتي دور الشورى التي لا تخضع للأهواء ولا لمصالح الأفراد من أصحاب السلطة والنفوذ بمختلف أشكاله، ولكن تتم بتشاور الجماعة؛ بهدف حماية الحقوق المشروعة للأفراد والجماعة، لتحقيق غاية الوجود الإنساني ومصالحه العامة في الإعمار والإصلاح والأمن، من دون عوائق ولا معوقات.

وهكذا فالشورى جزء لا يتجزأ من حياة الفرد والجماعة والإنسانية، بل هي الأداة الضرورية لمزاولة الفرد والجماعة كرامة الاستخلاف. وهي مبدأ لإدارة الأداء الإنساني السوي، ولإعمال الفكر الإنساني السليم، وسلامة الأداء الخير الفعال، وبناء الاقتناعات الجماعية الناضجة، ووسيلة اجتماعية إنسانية أساسية للتحاور والتواصل والاعتدال والتوافق والتسامح، وهي

درع، بالأمة وللأمة، للحماية من شرور الاستبداد والطغيان والظلم والبغي والفساد؛ فتكون الأمة برؤيتها الكونية الحضارية الإعمارية، ووعيها بمصالحها وحق تقرير خياراتها الحياتية الإعمارية، هي الوصي على السلطة وليس العكس، وحين يغيب ذلك فيكون رجل السلطة هو الوصي على الأمة ليسخرها لمصالحه، ويستأثر ويحتكر السلطة والثروة، ويقضي في لهوه وفساده على كل إمكانات الكفاءة والإبداع والنمو في دوله ومجتمعاته؛ ولذلك فإن للحرية والشورى أهمية خاصة في قيام الحضارات وانهيارها.

9 - الحرية والشورى: شرط لازم لبقاء الحضارات

من البديهي أن الاستبداد والظلم والفساد لا وجود لها مع الحرية والشورى، لأن الظلم والفساد لايمكن أن ينمو إلا في ظلام الجهالة والتضليل والتزييف، لأن الأحرار المتواصلين المتشاورين لا يمكن تضليلهم جميعا كلهم كل الوقت.

وهكذا فإن العدل نبت الحرية والشورى، وإن الحرية والشورى لا يمكن أن توجد من دون العدل.

إن من الأهمية الكبرى للأمة المسلمة، وهي في مرحلة النهوض واسترداد العافية الحضارية، إدراك التلازم بين الحرية والشورى، وبين قيام الحضارات واندثارها؛ وكيفية تأثيره على الأمم؛ ارتفاعاً وانخفاضاً، وأن تدرك كيف يتعامل المفكرون والقادة والمصلحون مع واقعهم، وتعمل على إعادة تأهيل الأمة

لكي تستعيد موقعها ومسيرتها الحضارية الخيرية الإعمارية الفريدة.

إن الحضارة الإنسانية اليوم وهي تعاني من سيطرة المادية والعنصرية، ومن دعاوى "الديموقراطية الزائفة"، ومن "الحريات" الفوضوية العبثية المفسدة، ومن كهنة تضليلات الإعلام والمراكز البحثية الزائفة التي يتحكم فيها وفي مؤسساتها طبقة رجال السلطة والمال، وما يستتبع ذلك من احتكاراتٍ ومظالم، ومن تجهيل وتفقير لجماهير الأمم، إنما تدفع بالإنسانية إلى الدمار، إلا أن ينبثق مجددا فجر حضارة الإسلام الروحية.

إن ما أصاب فكر الحضارة المادية المعاصرة من انحرافات وتزييف، وما أصاب رؤيتها الكونية من تشوه في كيانها، من قولبة اجتماعية، واحتكارات سلطوية ومالية وتقنية، إنما هي مؤشر على دخول الحضارة المعاصرة مرحلة متقدمة من التشوه والاستبداد والمظالم والفساد، وبأشكال كثيرة مضللة، بتأثير الكهانة الإعلامية، وهذا يؤذن بتكلُّسها وانهيار بنائها الاجتماعي والحضاري ونظامها العالمي.

وفي هذه المرحلة من المهم أن نتنبه إلى أهمية المؤسسات في البناء الاجتماعي؛ لأن بناءها على أسس سليمة يحول دون الانحرافات "الفرعونية" و"الكهنوتية" لأن المنهج المؤسسي هو الذي يجعل الشورى منهجاً يحمي البناء، ويقضي على بذور الفوضى والانحرافات، ويحمي الحريات التي تكشف الزيف والفساد، وتفسح المجال للمبادرة والعطاء والإبداع.

وفي ضوء ما تقدم، من المفيد أن نتساءل: هل تحولت الثروات المجانية، بالإضافة إلى الدخول والمصالح المشبوهة من المعونات والقروض والعمولات، لتصبح داعياً ومصدراً لمزيد من الاستبداد ومزيد من الفساد، ولمزيد من التكلُّس والجمود والفوقية الداعية إلى بقاء الأحوال على ما هي عليه من احتكار للسلطة والثروة ومزيد من الفساد؟

إذا لم يتنبه المفكرون والإصلاحيون والتربويون لهذا الأمر فإننا نخشى أن تدمر بواكير صحوة الأمة وتجهض قبل أن تزهر وتثمر.

فهل سيهب المفكرون والمصلحون والتربويون والمثقفون لاستنقاذ الأمة من خطر الإجهاض وانحراف المسيرة، وإعدادها حقاً للحصول على فرصة الإرث الحضاري المتاحة لها، والتي هي بإرثها وتاريخها الحضاري أهلٌ لها، ويصلحون ويستنقذون معها مسار الحضارة الإنسانية؟

هل سنستعيد رؤيتنا الكونية الحضارية الإعمارية الخيرة؟ وهل سنصلح تشوهات فكرنا وخطابنا وأساليب تربيتنا؟ وهل سنبني مؤسساتنا لحماية قيم رؤيتنا الكونية ومفاهيمها ومبادئها ومنهج فكرها؟

كل ذلك ممكن على الرغم من كل العقبات، لأن لدى الأمة كل المؤهلات التي يمكن تفعيلها بجهاد المفكرين والمصلحين والمربين، وبطاقة الآباء والأمهات وتضحياتهم الرشيدة المخلصة من أجل مصلحة أبنائهم؛ لأن الآباء والأمهات هم أصحاب اليد

العليا لدى أبنائهم برغم سطوة "الفراعنة" وتدليس "الكهنة"؛ إذا صح منهم العزم، وصحت الرؤية.

هل سنكرم إنساننا ونحترم ذواتِنا ونحمي حرياتِنا، ونقيم مؤسسات العلم والمعرفة والعدل والشورى والتكافل والأمن والسلام في أركان بنيان اجتماع أمتنا وحضارة عصرنا؟

وحتى تكتمل الصورة ومؤهلات الاستخلاف فإن علينا أن نستوفي عدة الاستخلاف، وهي جانب العلم والمعرفة الشمولية السننية، حتى نحصل ثمرة الاستخلاف في التزام قصد الإصلاح والإعمار، وتسخيره لحاجات الإنسان ومتعه وإبداعه.

10 - الشمولية العلمية السننية

إن الوعي والتفكر والفطرة السليمة في الكون من حولنا؛ تحتم على الإنسان، عقلاً وفطرة، الاستجابة لفطرته السليمة الروحية في إدراكها وإيمانها الفطري بوحدانية الخالق وغائيته وأخلاقيته، وذلك باستخدام عقله.

إن الإدراك العقلي الموضوعي للفطرة الإنسانية وسنن الوجود وواقع الحياة هو السبيل الفطري العقلاني إلى فهم الحياة والوجود، ومن دون التعامل العقلي العلمي الموضوعي السنني الشمولي؛ لا يكون الحال، كما هو ملموس، إلا عالما من الفوضى والعبثية والتخريف، وهو ما ترفضه الفطرة السوية والعقل السليم.

ولو لم ينحرف مسار منهج العقل المسلم، بتأثير الخيالات

والتهويمات الأسطورية الصورية الإغريقية، لكان المسلمون هم البناة الأوائل، لأنهم، بهدي الرؤية القرآنية الكونية الحضارية، مؤهلون لامتلاك ناصية مختلف العلوم.

ولتصحيح مسار الأمة الإسلامية العلمي والإصلاحي الحضاري اليوم، وبعيداً عن الخرافيات والصوريات، فإن على المثقفين والدارسين والمفكرين والمصلحين المسلمين أن يستعيدوا بُعد العلمية الفطرية السننية الشمولية ومنهجها، وعلى هدي وقدم راسخة وثابتة من الرؤية الكونية القرآنية الحضارية، وذلك بإصلاح مسار الثقافة والتربية والتعليم التي هي الأساس في بناء فكر الأمة ومؤسساتها العلمية، وفي إعداد كوادرها العلمية والقيادية، وذلك لتحقق وحدة المعرفة الإسلامية التي تبني عقلية العلم والمعرفة شمولياً، في المجالات الحياتية والكونية كافة.

إن من المهم، لكي يقوم المفكرون والتربويون والقادة الإصلاحيون والعلماء والمثقفون بحركة الإصلاح في الأمة، أن يعلموا أن المعرفة وميزانها العقلي الموضوعي لا يكفيان لتحريك الفعل الإنساني، ولا لتحديد وجهته وغايته؛ لأن ذلك يتوقف على انفعال الوجدان الإنساني والإرادة الإنسانية في تقرير أمر الخيار والفعل الإنساني، لوجهة أو أخرى، قد تتفق مع ميزان العقل وموضوعية المعرفة، وقد تناقضها، حسب ميل وجدان القلب واللب.

ولذلك لا يكفي، لجهود الإصلاح، العناية بالتعليم والمدرسة

فقط، بل إن التربية في مرحلة الطفولة التي تشكِّل أسس بناء كيان الإنسان المادي النفسي، تعد من أخطر العوامل في تكوين الوجدان الإنساني الذي له تأثير لا ينمحي على القلب والوجدان، وعلى صفات الإنسان النفسية الوجدانية الأساسية التي تقوم بالدور الرئيس في توجيه خيارات الإنسان.

لذلك فإن من المهم للإنسان والمجتمع المسلم أن يصلح ما تشوه من منهج فكر الأمة، وفكر أبنائها، وأن يصلحوا في ذات الوقت ما تشوه من أساليب تربية الناشئة، وخطاب وجدانهم، ليصلح بناء مستقبل أجيال الأمة، وليعيدوا قبل ذلك بناء رؤية الأمة الكونية؛ التي هي أساس البناء المعرفي والوجداني؛ حتى تستعيد الأمة صفاء عقيدة الأجيال الروحية التوحيدية الأخلاقية الإيجابية الإعمارية.

11 - العالمية

وهي تعني مرحلة الإنسانية التي تلاحمت فيها مراحل تكوين الإنسان كافة؛ لتكون دوائر متداخلة من القربى والانتماء، من الفرد إلى العائلة، إلى العشيرة والقبيلة، إلى القوم، وإلى اللغة واللون والجنس، لينتهي كل ذلك إلى الدائرة الأصل الكبرى، وهي الإنسان والإنسانية.

والعالمية هي صنو نضج حضارية الإنسان وقدراته العلمية التي أزالت حتى الآن الكثير من حواجز الزمان والمكان، والتي لا يناسبها، ولا يعبر عنها، إلا الخطاب الإنساني إلى الإنسان؛

لأن عالم العالمية لا موضع فيه حضارياً وإنسانياً للعنصرية، كما أن العلمية السننية التي حققت العالمية لا موضع فيها ولا مكان للخرافة والشعوذة والتخريف.

وكل الأديان قبل الإسلام كانت رسالات إلى أقوام بعينهم، أما الإسلام فقد جاء رسالة إلى الإنسان "الناس وبني آدم" فكان خطابه خطاباً عالمياً إلى كل الإنسانية، وكانت وسيلته العلمية السننية، فكانت حجته ورسالته هي "كتاب" "اقرأ"، وكانت غايته العدل والسلام؛ لأنه من دون العدل لا عالمية ولا سلام.

ويظن كثيرون أن العولمة هي شيء جديد، وهذا غير صحيح؛ لانها ليست إلا مسمى جديداً للنزعة الاستعمارية الاستغلالية من جهة القوى الاقتصادية المادية المتسلطة، مسلحة بإمكانات العصر، في مزيد من كسر حواجز الزمان والمكان، لتحقيق مزيد من البغي والظلم والاستغلال.

"فالعالمية" ليست "العولمة" بل هما النقيضان، فالعالمية تواصل وإخاء وتراحم وتبادل عادل للمنافع، وسلام بين بني الإنسان،على العكس من العولمة؛ فهي استعلاء وهيمنة وسيطرة واستغلال ومطامع وحروب عالمية بكل أنواعها، وهي نظام استعماري احتكاري جائر.

إن مرحلة العلمية والعالمية التي تخوضها الإنسانية، منذ عهد خطاب الرسالة المحمدية الخاتمة إلى الإنسانية، وتنامي حركة الاتصال الذي تنامى معه كسر حواجز الزمان والمكان في اتصال الشعوب الإنسانية وتبادل مصالحها، كل ذلك يدفع الإنسانية

وشعوبها إلى التوحد في مجتمع عالمي واحد.

وإذا كان المجتمع العالمي الواحد، والحكومة العالمية الواحدة، مما كان يبدو أقرب إلى الأحلام، فإن حركة العالمية الإنسانية اليوم تجعله اليوم حقيقة لابد منها.

إن علي المفكرين والإصلاحيين أن يتيقنوا أنهم أمام فرصة كبيرة لتحقيق حلم الإنسانية ومبتغى خلافة الإنسان في الأرض؛ إخاء وعدلاً وسلاماً وإعماراً، وذلك بالإستفادة من حركة العالمية والتواصل بين الشعوب، وأن خسارتها ستكون مؤلمة وفاجعة.

والسؤال الخطير: هل سيحدد طبيعة هذا المجتمع، وهذا النظام، قوى "العولمة" المادية الطينية الحيوانية العنصرية الاستغلالية، أم سينجح المفكرون والعلماء في إغتنام الفرصة لبناء الحضارة الإسلامية الكونية القرآنية؟

12 - السلام

السلام مبدأ وضابط بديهي لمبدأ العدل ووحدة الإنسان في علاقات الإنسان في الرؤية القرآنية الكونية الحضارية، ولما كانت الإنسانية في الرؤية القرآنية وحدة في تنوع، وتنوعاً في وحدة، وكان كيان الإنسانية كيانا مركبا في دوائر متداخلة، بدءا من الفرد، وامتداداً حتى كلية السلالة الإنسانية، فلابد من مبدأ السلام حتي تحكم وتضبط هذه العلاقات المتداخلة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البَقَرَة: 208].

ومن المهم ألا ننسى الإشارة إلى أن ما ذكرناه إنما هو بعض أهم مبادئ الفكرالإسلامي وضوابطه القابلة لمزيد من التقسيم والتفصيل، والتي توفر مزيداً من ضوابط منهج البحث العلمي الإسلامي؛ حتى يحقق غاياته ومقاصده الحضارية الإعمارية الخيرة التي تحقق الذات الإنسانية الغائية الأخلاقية السوية.

13 - الإصلاح والإعمار

السعي والتسخير فطرة أصيلة في الإنسان للحصول على حاجاته في الحياة والبقاء، وهو ثمرة الاستخلاف في الأرض، ولكن الإنسان في سعيه في الحياة تتنازعه قوتان، إحداهما نزعة حيوانية مادية طينية تميل إلى الافتراس والحصول على الحاجات بالعنف والقوة والظلم والعدوان، وقوة أخرى هي الحس الضميري الفطري السوي الروحاني الذي يدفع الإنسان إلى التزام قيم الحق والعدل والرحمة، وينأى به عن الظلم والعدوان.

إن من المهم أن ندرك أن قصد الإعمار والإصلاح إنما هو مبدأ وغاية فطرية سوية لا تنفصم عن الرؤية القرآنية الحضارية لمشروع الوجود الإنساني على الأرض، وأنه لا قيمة للوجود الإنساني في الأرض، ولا يحقق الإنسان ذاته، من دون قصد السعي والعمل والإبداع لتسخير عالم الحياة لحاجات الإنسان الحياتية.

ولكن يجب على الإنسان في سعيه للحياة أن يلتزم جانب الخير والصلاح لتحقيق الذات الإنسانية، وإن السعي بالظلم

والفساد في الأرض إنما هو هلاك وتدمير للذات الإنسانية، وانتهاك لحرمة مقاصد نظام الكون والخلق.

14 - الجمال: حقيقة أم وهم؟

استكمالاً لمفهوم الإصلاح والإعمار؛ يتوجب الحديث عن قيمة الجمال في الرؤية الكونية القرآنية الحضارية، لأن قيمة الجمال قيمة كونية مبثوثة في إبداع الكون "المنظور" وإتقانه وأحاسيسه الفطرية، وهو أيضاً حاجة فطرية للنفس الإنسانية وتطلعاتها ومتعها في كل مجالات الحياة والوجود المادي والمعنوي. وقيمة الجمال بقدر ما هي مبثوثة في الكون "المنظور" هي أيضاً مبثوثة في الوحي "المسطور" وفي تلافيف تعبيراته في وصف ما أبدع الخالق من الخلائق، وما وهب الإنسان من نعم يمتع بها أحاسيس سمعه وبصره؛ إتقانا وتناسقاً وإبداعاً وصنعةً وتسخيراً.

ولكن المؤسف أن طغيان خطاب "إلغاء الذات" على الخطاب الإسلامي، ولآماد طويلة، أطفأ في نفس الإنسان المسلم خطاب "تحقيق الذات"، وبذلك أطفأ في نفسه تدريجياً حس متعة جمال الإبداع.

إن متع الجمال وإبداعاته وتناسقاته في الخلق فطرة إنسانية، وطلبها هو من صميم "تحقيق الذات" الفطرية القرآنية. ولكن يجب ألا تخرج فطرة حب الجمال عن الفطرة السوية الراشدة في كيفية التعامل مع الحاجات وإشباعها بالوسائل الصحيحة دون تفريط أو إفراط.

إننا نجد رسول الله ﷺ - وبرغم كل ما كان من تحديات عهد النبوة والعهد الراشد - يوصي بترويح النفوس لأن النفوس؛ إذا "كلت" من العمل "ملت"، حتى إننا نجده ﷺ، وقد أراد الأنصار الاحتفال بالعرس، وهم بعض الأصحاب بالاعتراض، يكفهم تقديرا لحاجة النفوس إلى شيء من الترويح واللهو بالاستمتاع بجمالات الغناء واللهو، بل نجده ﷺ يؤلف لهم نشيد غناء للمناسبة ينشده القوم على قرع الطبول فيه روح بهجة ومداعبة.

بل نجده ﷺ يصحب بنفسه زوجته أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها لتستمتع بجمال عروض الألعاب والرقصات الشعبية لفرقة الأحباش الذين أتوا إلى المدينة.

يجب أن لا نحرم العين لذة المشاهدة، ولا الأذن لذة السماع، ولا الخيال لذة التناسق والإبداع بسبب خطأ ولكن من دون إسراف ولا إفراط، وأن يكون ذلك في الحدود التي يقرها الشرع.

والجمال من الأمور المعنية في الدنيا بمتاع الغرور. يقول تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عِمرَان: 196-197].

وهكذا نرى أنه ما كان طلب الجمال وإبداعه تحقيقاً فطرياً سوياً للذات فإنه متعة في الدنيا والآخرة، أما إذا كان فحشاً وفجوراً فإنه يكون وهما ومتاع الغرور.

الرؤية القرآنية الكونية:
الأساس والمنطلق والدافع للإصلاح والإعمار

لكي تستعيد الأمة رؤيتها القرآنية الكونية علينا أن نضع في بؤرة وعينا سالف تاريخ الأمة الإسلامية على العهد النبوي والراشد، والغاية منه، وما كان من أثر للرؤية القرآنية الحضارية على تلك الحقبة، وما تركته تلك الرؤية وتركه ذلك العهد، على مدى الزمان، من آثار رائعة في مسيرة الأمة الإسلامية، وفي تاريخ الحضارة الإنسانية.

كذلك علينا في ذات الوقت أن ندرك في ضوء الرؤية القرآنية الكونية حقيقة وجوهر الحضارة المادّية للإنسان الغربي المعاصر، هذه الحضارة التي تخلت عن الأديان وهداية الوحي بعد أن استنفدت رسالتهم مهمتها الخاصة بالقوم الذين وجهت إليهم، وبسبب ما أصاب تلك الأديان أيضا من تحريف، مما دفع أمم الغرب إلى تهميش تلك الديانات، وترتب على ذلك التوجه المادي لحضارة الغرب المعاصرة بكل ما للمادة الخالية من الروح من صفات وسلوك وأخلاقيات، والتي هي أخلاقيات الغاب، في عنصرية النوع والسلالة، وغلبة الأقوياء وتسلطهم، وغياب الوازع الأخلاقي الاجتماعي في العلاقات والسلوك، مثلهم في ذلك مثل الحيوان الذي هو مادة طينية له حياة ولكن ليس له روح.

ولكن، وبالرغم من كل سلبياتها، حققت الحضارة الغربية المادية، فقد حققت ما حققته من مقومات الإستخلاف والتسخير المادي المتمثلة في العلوم الدنيوية، وإنما ذلك بسبب التزامها المنهج العلمي السنني المادي، الذي هو أحد مؤهلات الاستخلاف.

إن الإسلام إذا حسن فهمه، وتمت تنقية رؤيته القرآنية الكونية الحضارية من التشوهات، وتمت تنقية منهج فكره ومفاهيمه من الانحرافات والخرافات، وحسنت أساليب تربية ناشئته، سيجد الإنسان المادي المعاصر فيه، ولا شك، الخلاص من الصراعات والمظالم والمخاطر التي تهدد وجوده، ليبدل الإنسانية من بعد خوفها أمناً وطمأنينة نفسية وعدلاً معاشاً.

وهذه المهمة الإصلاحية هي مهمة المفكرين والإصلاحيين الإسلاميين إذا ما تحلوا بالموضوعية والصبر والشجاعة التي يتغلبون بها على كوابح الثقافة، وتخلف الفكر وجموده، وصدأ الأنظمة، وتكلُّس الحضارة.

الرؤية الكونية الحضارية
والمفاهيم الإنسانية الأخلاقية

لا تخطئ الأذن ثروة الإسلام من المفاهيم الإنسانية الأخلاقية في القرآن الكريم والسيرة النبوية وسيرة الأصحاب، وفي نفائس تراثِ الأمة، وفي الأدبيات الإسلامية المعاصرة، ولكننا نلاحظ خلو واقع الحياة والعلاقات في المجتمعات الإسلامية المعاصرة من آثار الكثير من هذه المفاهيم.

ومن الواضح أن القيم والمفاهيم هي أدوات تفعيل الرؤية الكونية الحضارية لأية أمة، فإذا تشوهت تلك الرؤية؛ فإن ذلك يشل فاعلية تلك القيم والمفاهيم؛ وذلك لافتقاد الأمة وأفرادها للمحرك وللقصد والهدف الذي تولده الرؤية الكلية الكونية للأمم، وتدفعها إلى تلبس تلك القيم والمفاهيم، واستلهامها والتزامها في علاقاتها ومعاملاتها.

ومن هنا فإن إحياء هذه القيم والمبادئ والمفاهيم، وغرسها تربوياً في وجدان أفراد الأمة، وتجسيدها في مؤسسات متفاعلة متكاملة؛ لتصنع أمة إيجابية فاعلة، هي أمور متلازمة لا بد من توافرها لبناء الأمم الحضارية صانعة الحضارة والتاريخ.

ولذلك فإنه لا يكفي ما نتغنى به من مبادئ وقيم ومفاهيم إذا

لم نستعد الرؤية القرآنية الكلية الحضارية، وإذا لم نُزِل عنها ما أصابها من تشوه، وذلك بإصلاح مناهجنا الفكرية والتربوية، ومخاطبة وجدان الإنسان المسلم.

ما وراء الرؤية: حتى لا نحرث في البحر

لقد علمنا ما صنعت الرؤية الحضارية الكونية القرآنية بجيل الأصحاب، وما حققوه من أمثلة وإنجاز حضاري كان لمنطلقاته القرآنية أعظم الأثر في تجديد الحضارة الإنسانية، كما علمنا أن العزوف عن العودة إلى القرآن الكريم لاستلهام الرؤية الكونية الإسلامية الحضارية يفسر أسباب ما أصاب رؤية الأمة الحضارية من غبش وتشويه.

ولاستعادة عافية الأمة، واسترداد رؤيتها وغائيتها وأخلاقيتها ودافعيتها، فإنه لابد من البدء بمراجعة تراث الأمة ومسيرتها برؤية بصيرة ناقدة، تميز الصالح من الطالح، بإخلاص وعلمية موضوعية، وبدون رهبة أو خوف من الكهنة والساسة.

فإذا أدت الرؤية العلمية الموضوعية دورها في تخلية الساحة الفكرية والتربوية والاجتماعية من الأمراض والتشوهات، جاء دور البذر برؤية كونية علمية عالمية موضوعية اجتماعية حضارية تعتمد المرجعية القرآنية، وتستلهم حكمة السيرة والتنزيل النبوية.

"العلم والمعرفة" هما صناعة المفكرين والعلماء والأكاديميين والمثقفين، وصناعة المدارس والمعلمين، أما التربية والتهذيب (الروح والضمير والسلوك السوي) فهما مهمة الوالدين

والتربويين، وإن كان هذا لا ينفي أثر الإعلام والبيئة الاجتماعية في هذا المجال، ولكن يجب عدم الخلط بين الأدوار، بما يخل بأداء المنظمومة العلمية والتعليمية، أو بالمنظومة التربوية.

لقد آن الأوان لأن نأخذ جميعاً أنفسنا وحياتنا ووجودنا بالجدية المطلوبة لنبني مجتمع الأمة بمنظور الرؤية القرآنية الكونية الحضارية، وهذا ممكن إذا قام المفكر والإصلاحي التربوي والأسري بأداء دوره، و"من جد وجد" و"من سار على الدرب وصل".

كيف نبني "العلوم الاجتماعية الإسلامية" ونحقق "الرؤية الإسلامية"

من المهم أن نستحضر بشكل مستقل قضية بناء العلوم الاجتماعية الإسلامية، والتي بها نولد الفكر الإسلامي؛ الذي يحقق الرؤية الإسلامية، ونضع بذلك حداً للجدل والحيرة التي تتعلق بماهية "إسلامية المعرفة"، وكيفية تحقيقها. فمن أهم أسباب ضبابية مسألة إسلامية المعرفة؛ ضبابية طرح قضية بناء العلوم الاجتماعية الإسلامية، وعدم وضوح طبيعة محتواها ومهمتها وعلاقتها بالفكر والتراث الإسلامي من ناحية، وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية الغربية من ناحية أخرى.

ولإزالة هذا الغموض نبدأ بتحديد مفهوم ماهية العلوم الإسلامية التراثية الذاتية واستخداماتها، ثم نحدد طبيعة العلوم الاجتماعية المعاصرة.

ونبدأ بقضية الفكر والعلوم الإسلامية التراثية، فمن الواضح أن الجانب الفقهي (القانوني) هو الصبغة الغالبة على هذا الفكر، والفقه في جوهره يمثل القانون الذي يشكل مجموعة قواعد وضوابط تحكم العلاقات الاجتماعية.

وإذا تتبعنا، في نظرة شمولية كلية، مسيرة الفكر الإسلامي وعلاقته بالفقه والقانون الإسلامي؛ فإننا نجد أن الفقه الإسلامي منذ البداية استمد فكره ومحتواه من العهد النبوي والراشدي وممارساته وتطبيقاته، والتي تمثل في جوهرها السنة النبوية وممارسات عهد حكم الأصحاب بعد وفاة الرسول ﷺ.

وبانهيار عهد الخلافة الراشدة، وما أحدثتها الفتوحات من جانب آخر، وما تبعه من استيلاء القبلية العربية على الحكم وإدارة الدولة، وما مثله ذلك من انحرافات سياسية واقتصادية واجتماعية على العهد الأموي؛ ومع مضي الوقت وتفاقم العزلة والعجز الفكري والسياسي انتهى الأمر بهذه القواعد والضوابط والأحكام الحرفية المستمدة من فكر وواقع وممارسات لم يعد لكثير منها وجود في واقع المجتمعات الإسلامية المتأخرة، وهذا يعني أن كثيراً من هذه القوانين والضوابط والقواعد والأحكام أصبحت تمثل فكراً وواقعاً تاريخياً لا وجود له في عالم اليوم.

أما العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة وعلاقتها بقضية إسلامية المعرفة، والتي هي قضية العلوم الاجتماعية الإسلامية، فهي قضية تتعلق بالمحتوى، كما هي قضية تتعلق بالمنهج، وإذا فصلنا القضيتين (المحتوى والمنهج) إحداهما عن الأخرى؛ أصبحت الرؤية واضحة، والتعامل معها مثمرا وميسراً.

ولتوضيح الأمر، وقبل أن نتعرض لكل ذلك، فإن من المهم أن نوضح أولا مهمة العلوم الاجتماعية في ميدان المعرفة والعلاقات الاجتماعية.

وحتى يتم معرفة مهمة العلوم الاجتماعية فإن علينا أن نقرر، وأن نعلم من حيث المبدأ، أن العلوم الاجتماعية تختلف مهمتها ودورها المعرفي والاجتماعي عن مهمة القانون والفقه الاسلامي؛ لأن مهمة العلوم الاجتماعية أكبر وأوسع من ذلك، وذلك لأن مهمتها في جوهرها هي دراسة المجتمع على ضوء رؤيته الحضارية، وما يستتبع ذلك.

وهذا يعني أن مهمة العلوم الاجتماعية الإسلامية هي عملية توليد الفكر الاجتماعي في المجتمع، وهي بذلك توفر المادة الفكرية الإسلامية التي يقوم الفقه والقانون باستخلاص القواعد والضوابط منها، أي أن مهمة الفقه والقانون مهمة شكلية، ومهمة العلوم الاجتماعية هي مهمة فكرية، وهما بذلك يتكاملان تكامل أجنحة الطائر في خدمة مسيرة الأمة، وبناء كيانها، وحضارتها.

والسؤال هنا: أين تلتقي العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة مع قضية إسلامية المعرفة وبناء العلوم الاجتماعية الإسلامية؟ وكيف؟

نحن نعلم أن المحتوى الفكري الغربي للعلوم الاجتماعية الغربية يتأثر بجانبين: الأول منهما هو الجانب الفكري الذاتي المتمثل في الرؤية الكونية الغربية، والتي هي في جوهرها هي رؤية فكرية مادية؛ لم يعد لأديانها تأثير ذو وزن على رؤيتها.

أما الجانب الثاني، وهو الجانب الموضوعي للعلوم الاجتماعية الغربية، فيتمثل في منهجية دراسة الفطرة والطبائع البشرية، وبالتالي معرفة كيفية تفاعلها مع واقعها، وكيفية تطويع هذه الفطرة لتحقيق أهداف الرؤية، واستفادتها من الإمكانات لإبداع الوسائل والحلول والمؤسسات لمواجهة التحديات.

ويمكننا الاستفادة من هذا الجانب الموضوعي، ومن الكثير من إبداعاتهم.

والسؤال: هل نحن في الاستفادة من مفهوم دراسة الفطرة والسنن الاجتماعية، بل والمادية، عالة على الغرب، ونستورد شيئا غريباً عن رؤيتنا الكونية الحضارية؟

نحن الآن نعلم أن هذا غير صحيح، ولقد جاء الإسلام بفجر عهد جديد يفتح آفاق العلمية والعالمية، ويحث على العلم والفكر والبحث والنظر، وأن الحضارة الإسلامية هي التي بدأت فجر البحث العلمي ودراسة السنن الكونية، ولم يعرف الغرب الهمجي في ذلك الوقت معنى العلمية والسننية إلا من الإسلام واحتكاكه معها. وأن العلوم الاجتماعية الغربية لم تكن إلا امتداداً لعقلية دراسات السنن الكونية الإسلامية.

لقد كان المسلمون أولى من سواهم في السبق في مجالات الدراسات العلمية للفطرة الإنسانية، والسنن الإلهية في إبداع الخلق، ولكن ما أصاب مسيرة الأمة من عثرات مبكرة عرقل هذه المسيرة، وحرم الإنسانية لقرون كثيرة من هداية الوحي والإسلام في علم وعالمية تحقق رؤية العدل والأمن والسلام.

إن كل ما سبق يعني أن على المسلم أن يقوم بأربعة أمور هي:

1 - أن يخلِّص نفسه من داء التقليد والمتابعة، وأن يسلِّح نفسه بالعقلية الشمولية التحليلية العلمية الناقدة المبدعة.

2 - أن يؤهل نفسه بمعرفة الرؤية القرآنية الكونية الحضارية وقيمها ومفاهيمها ومبادئها وثوابتها.

3 - أن يؤهل نفسه بمعرفة المنهج العلمي لدراسة الفطرة الإنسانية والكونية، ودراسة الواقع وطاقاته وإمكاناته في الزمان والمكان.

4 - أن يستفيد من التراث الإسلامي، وأن يفيد من الإنجازات العلمية المعاصرة الموضوعية.

وهكذا نرى أن "إسلامية المعرفة" وبناء العلوم الاجتماعية الإسلامية، وتوليد الفكر الاجتماعي الإسلامي المعاصر، أمر لا يختلف عما يقوم به العلماء والدارسون في مختلف مجالات العلوم، وكل ما نحتاج إليه هو تجلية الرؤية الكونية القرآنية الحضارية.

إسهامات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

وهنا يمكن الاستفادة من الكثير من الإنتاج العلمي ومن الخطوات العلمية التي قام بها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، والتي يجب على مراكز البحث العلمي والمهتمين في مجال الدراسات الإسلامية والاجتماعية والمنهجية؛ العمل على دراستها واحتذائها وتطويرها؛ لدفع عجلة العمل الجاد وتراكماته في مجال الفكر الإسلامي.

ويعتزم المعهد العالمي للفكر الإسلامي في برنامجه للسنوات القادمة بذل المزيد من الجهود في مجال التأليف والتدريب الأكاديمي في مجال منهجية العلوم الاجتماعية الإسلامية، وتجلية قضايا الرؤية الإسلامية.

ومن أهم ما أسهم به المعهد العالمي للفكر الإسلامي في إصلاح مناهج التعليم العالي في نموذج الجامعة الإسلامية بماليزيا؛ اعتماد نظام التخصص الرئيس، والتخصص الفرعي، في كلية معارف الوحي الإسلامي والعلوم الإنسانية، حيث يكون مساق الدراسات الإسلامية هو أحد التخصّصين، وبحيث يصبح للخريج إذا استكمل التخصص الفرعي؛ وذلك بمد الدراسة عاماً

إضافيا، درجتا بكالوريوس: الأولى في الدراسات الإسلامية، والأخرى في أحد العلوم الاجتماعية أو الإنسانية.

وقد حقق هذا النظام نجاحا كبيراً، وأسهم في تخريج نوعية من الخريجين أكثر انتماء، وأكثر نضجاً، وأكثر فهما وإدراكاً للرؤية الإسلامية الحضارية، ولدور الأمة الحضاري في المسيرة الحضارية الإنسانية، كما أنهم أقدر علمياً في مجالات تخصصهم.

ومن المقررات التي طبقت في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا مقرر يحمل اسم "الدراسات الاستغرابية" يهدف إلى توفير خبراء في فهم الحضارة الغربية، للتواصل الفعال مع إيجابياتها وتلافي سلبياتها. وكذلك مقررا "الأسرة والأبوة" و"التفكير الإبداعي وحل المشاكل". وهنالك اقتراح بمقرر "قيام الحضارات وانهيارها". كما أن هنالك فرقا علمية ضمن برامج المعهد العالمي لتحقيق وحدة وإسلامية المعرفة.

أما فيما يتعلق بالعلوم الفيزيائية والتقنية فيستحسن أن يصاحبها منهج الدراسات الإسلامية، بحيث يملك الطالب الخلفيات الأساسية لتُعينه في طلب المزيد إن رغب في ذلك.

وهكذا يمكن الاستفادة من خطة المعهد العالمي للفكر الإسلامي في البرامج الدراسية لتخريج جيل متكامل التكوين العلمي والوجداني الحضاري، للارتقاء بأبناء الأمة وكوادرها العلمية وقياداتها، حتى تتمكن الأمة من تحقيق رسالة الإسلام الحضارية.

كلمة أخيرة

من المهم أن ألفت نظر الإخوة والأخوات من الأساتذة الجامعيين، وكوادر البحث المتخصص ومراكزه الجامعية وغير الجامعية، إلى أن الكثير من كتابات الكتاَّب والمفكرين تحوي كثيراً من المفاهيم والمصطلحات التي تتناول الكثير من القضايا الجوهرية، والتي ترسم الطريق وتقدم المفاتيح لحلول كثير من القضايا. وإذا لم تأخذ عقول أصحاب الاختصاص وأقلامهم هذه المفاهيم، وتصنِّع أدواتها وسبل تنفيذها وتنزيلها على الممارسات الحياتية المتعلقة بها لتصبح مناهج وأنظمة وآليات علمية واجتماعية وثقافة حياتية لأبناء الأمة على مختلف فئاتهم، فإن هذه المفاهيم ستبقى حبيسة بين طيات الكتب، وليس لها أثر في واقع حياة المجتمع. لذلك أرجو أن تتكامل جهود أصحاب الاختصاص في هذا الشأن لتقدم للأمة رؤى ومناهج عمل وممارسات حياتية تجدد بها الأمة فكرها ومناهجها ومؤسساتها.

لقد بذلت الجهد ما أمكن لتنزيل بعض القضايا المفاهيمية على واقع بعض أحوال الأمة، وتقديم البدائل الفكرية والعملية، إلا أن ذلك مجرد نماذج لما يجب القيام به والتوسع فيه، والوصول به إلى مجالات التخصصات الأكاديمية في صورها وتفاصيلها العملية الواقعية، في كل مجال من مجالات الحياة.

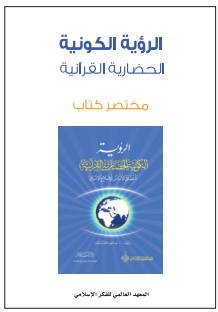

هذا الكتاب

يمثل هذا الكتاب مراجعة فكرية عميقة شاملة لقضية «رؤية الأمة الإسلامية الكونية»، وتتبع مسارها في التاريخ بما يفسر سبباً من أهم أسباب سالف رقي الأمة الإسلامية، كما يكشف عن وجوه التشوه التي أصابت رؤيتها الكونية الحضارية، والمخاطر التي تواجهها اليوم بسببها، وهو بذلك كتاب يسهم في تجلية وجه «الرؤية الكونية الحضارية القرآنية»، وكيفية إدراكها واستعادتها في عالم اليوم بما يمكن الإنسان المسلم، والأمة المسلمة، من استعادة سالف دافعيتها الإيجابية، وسالف قدراتها الحضارية الإعمارية الخيرة، استنقاذاً للأمة الإسلامية، واستنقاذاً لمستقبل الحضارة والإنسانية، بإذن اللّه.

عبد الحميد أحمد أبو سليمان:

من مواليد مكة المكرمة. رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي، والمدير المؤسس للجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا (1988م ـ 1999م). حصل على الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة عام 1973م. له العديد من الكتب والبحوث في مجالات الفكر الإسلامي المختلفة. منها: «النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية: اتجاهات جديدة للفكر والمنهجية الإسلامية»، و«أزمة العقل المسلم»، و«العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي بين المبدأ والخيار»، و«أزمة الإرادة والوجدان المسلم» و«الإصلاح الإسلامي المعاصر».

ISBN 978-1-56564-558-5

9 781565 645585

١٤٠١هـ - ١٩٨١م
1401AH - 1981AC